الباب الثاني

obeikan.com

شخصيات القامات العالية

بعد أن حكيت بعض المواقف من طفولتي للقارئ الكريم.. هاأنذا أعبر الجسر من الريف إلى العاصمة.. ومن الهدوء إلى الضوضاء والصخب والإيقاع السريع.

جئت إلى العاصمة حاملاً شهادة الثانوية العامة.. وتقدمت إلى كلية الآداب جامعة عين شمس - وكانت فى شبرا - وتركت أوراقي هناك ملتفتا إلى عملي الجديد فى دار القلم.. وإلى رعاية أسرتي الصغيرة: الأم وثلاثة إخوة.

وأتذكر أن خالي - محمد المعلم - صاحب الدار.. حينما جلست إليه.. أخبرني أنه يستطيع أن يلحقني بأي عمل فى أي مكان - كما يفعل مع من يطلب منه ذلك.. لكنه يريدني أن أعمل معه.. وأن أتعلم أسرار مهنة النشر - من الألف إلى الياء - غمرتني السعادة.. فها هو يرى فىَّ ما لم يجده فى غيري - هكذا فهمت - ولهذا قبلت - ولم يكن أمامي غير القبول.

وبدأت الطريق من بدايته.. المخازن.. ثم المطابع.. ثم النشر.. ثم التسويق.. ثم أمينا للمكتبة.

ولكي أؤكد لخالي قدراتي وإخلاصي.. التفتّ إلى عملي بكل طاقتي.. ونسيت أنني قدمت أوراقي إلى كلية الآداب.

وأفقت بعد عامين على حقيقة خطيرة..

ربما أصبحت بعد هذين العامين ممارسا جيداً لعملي.. فلماذا لا أكمل تعليمي فى الجامعة.. وأسرعت إلى الكلية.. ففوجئت بالسيد العميد يعيد إلىّ أوراقي بحجة أنني طوال العامين الماضيين لم أقدم حتى اعتذارا.. ولم أبال بالكلية.

حاولت استرضاء السيد العميد.. لكنه كان مستندا إلى القانون ولا يود أن يخالفه.

عدت بأوراقي - وخفي حنين - خائبا يائسا.. غاضباً من تلك الظروف التى أوقعتني فى حيرة شديدة.

وكان أمامي أن أعيد امتحان الثانوية العامة مرة أخرى حتى أستطيع أن التحق بالتعليم الجامعي.. ولكن أين الوقت الذى يتيح لي ذلك وأنا أعمل من الصباح إلى المساء.

يارب.. أهكذا يكون عقابي على ذنب لم أقصده..

إنني أعمل من أجل أسرتي التى لا عائل لها إلا أنا.. أأستحق بعد ذلك هذا المصير..

ويستجيب الله لدموعي المكتومة بعد أيام قليلة من الحيرة.

فقد أعلنت جامعة الأزهر (١٩٦١) عن فتح كلية جديدة - فى مجال التطوير - باسم (كلية المعاملات والإدارة) تدرس العلوم التجارية.. وتعلن عن قبول حاملي الثانوية العامة بلا شروط.. وسوف يخضعون لامتحان تحريري وآخر شفهي.. فإذا اجتاز المتقدم الامتحانين قبل فى هذه الكلية ولن يزيد العدد عن مائة مقبول.

وعلى الفور قدمت أوراقي إلى هذه الكلية الوليدة.. ومعي عدد كبير من حاملي الثانوية العامة.. واجتزت الامتحانين والحمد لله.. وبدأت الدراسة طوال خمس سنوات.

ويقضي قانون الأزهر بعدم الجمع بين العمل والدراسة.. أي لابد أن أكون متفرغاً.

مشكلة أخرى.!

أخذت أتحايل عليها بإقامة ندوات ثقافية فى الكلية لأوهم المسئولين أنني متفرغ للدراسة..

وأذكر أن عميد الكلية - د. لطفي العيسوي - وكان أستاذا للمحاسبة دخل على وأنا أعمل أمينا لمكتبة دار القلم.. فتعجب وسألني - وقد كنت فى السنة الثالثة من الكلية - ماذا تفعل هنا؟

أجبت بصراحة: أعمل..!

هز رأسه وربت على وقال: ربنا يوفقك يا بني.

وحصلت على شهادة البكالوريوس عام ١٩٦٦ بدرجة جيد.

تلك نقطة تحول أردت أن أحكيها وأؤكد فيها لطف الله بعباده خاصة المخلصين منهم.

وأعود إلى القاهرة الصاخبة..

والحق يقال إنني طوال وجودي فى بلدتي الهادئة - بيلا - كنت أكتب الشعر وأشارك به فى الإذاعة المدرسية وفى الاحتفالات الوطنية.. وأفاخر بأنني شاعر أبدع القصائد المتنوعة التى ترضي أذواق أصدقائي وأساتذتي فى المدرسة.

وبالطبع حملت معى هذا كله إلى القاهرة.. لأواصل مسيرتي الأدبية.

وكنت أسمع عن الحركة الشعرية الجديدة وروادها الكبار.. وحينما وجدت نفسي داخلها.. بدأت أعيد النظر فيما كتبت وفيما سوف أكتب:

ما هذا الذى كتبت وكنت أفخر به؟

إنه شعر لا يعتد به وسط هذه الساحة الصاخبة التى لا ترحم.

إذن علىّ أن أطوى كل ما كتبت فى (ملف) خاص.. وأكتب فوقه بخط واضح صريح: ما قبل التاريخ..!

وبشجاعة واقتناع.. فعلت ذلك..!

وبدأت خطواتي من جديد فى هذه الساحة الجديدة..

بدأت أعيد قراءاتي.. أقرأ بنهم كل ما يقع تحت يدي.. الشعر والرواية والفلسفة والمسرح.. وأنطلق إلى الأمسيات والندوات لا أترك واحدة دون حضورها.. أستمع وأتعلم وأتذوق وأشارك.. لعلي أكون واحداً من صناع هذه الساحة.

وثار داخلي شيطان الشعر من جديد.. ولكن برؤية مختلفة وأدوات جديدة.. ونشرت أول قصيدة لى فى بيروت عام ١٩٦٤.. وأصدرت أول ديوان لى عام ١٩٦٧.

محطات كثيرة مررت بها منذ ١٩٥٩ حتى الآن.. وشخصيات كثيرة التقيتها.

وهاأنذا أنبش ذاكرتي مرة أخرى لأستحضر طرفا من هذه اللقاءات مع بعض القامات العالية التى أقامت صرح الثقافة

المصرية بما أعطت وبما أبدعت.

وكما فعلت فى المواقف السابقة.. ستكون وقفاتي مع هذه القامات سريعة قصيرة عميقة تبرز سر علو وسموق وشموخ هذه الشخصية بأفكارها وإبداعها.. ودورها وتأثيرها فى شخصيتي وإبداعي..

معا - إذن - قارئي الكريم لنكمل الرحلة..!

obeikan.com

أنيس منصور

والقلم الرشيق

كنت أجلس إلى مكتبى بدار القلم حينما استدعانى هاتفى إلى غرفة صاحب الدار - خالى - الأستاذ محمد المعلم -

عرفنى بضيفة: الأستاذ أنيس منصور

وعرفه بى: هذا ابن أختى.. لكنه يقول إنه شاعر.!

لمعت عينا أنيس منصور وسألنى، أى لون من الشعر تكتب.!

قلت: العمودى والحديث.

هز رأسه وقال:

كن فى العمودى .. ولا تذهب إلى الحديث..

طبعا لم يكن هناك مجال للحوار حول هذا الموضوع.. ولهذا قطع الخال حوارنا بقوله: الأستاذ أنيس جاءنا بكتاب جميل هو: «٢٠٠ يوم حول العالم» يحكى فيه رحلاته الطويلة المتعددة شرقًا وغربًا .. ويريد من الشباب فى مثل سنك أن يقرأه قبل دفعه إلى

obeikan.com

المطبعة.. لقد قرأه ابنى إبراهيم قبلك.

كان الأمر غريبًا حقًا .. أنيس منصور الكاتب الكبير يريد أن أقرأ كتابه قبل دفعه إلى المطبعة..

لاحقنى الأستاذ أنيس ليخرجنى من دهشتى:

يا ريت تقرؤه بعناية وأسمع رأيك..

ازداد عجبى .. ودهشتى .. وسعادتى أيضًا ..

طبعًا كان كتابًا جميلا ممتعا بأسلوب الحكى الذى تميز به أنيس منصور والذى كان حريصا على الاستماع لرأيى ورأى غيرى أيضًا من الشباب.

وتوثقت علاقتنا منذ ذاك العام (١٩٦٢) باحترام وتقدير ..

والحق يقال إن كتب أنيس منصور تتميز بأسلوب خاص به وحده .. ومن ثم فهو من أصحاب الأساليب .. وتشعر وأنت تقرأ له بأنه يقفز بك مع كلماته برشاقة وعفوية .. ويصل إلى وجدانك وعقلك معًا ..

وكان أنيس منصور يفخر بأنه يحصل على أحدث ما تنتجه دور النشر الأوربية قبل غيره من الكتاب والنقاد العرب .. ورأيته مرة يخرج من حقيبته رواية حديثة لكاتب كبير .. ويقول:

النسخة الوحيدة التى عبرت البحر إلى الجنوب ..

كان مثقفًا موسوعيًا .. لا عمل له سوى القراءة والكتابة .. منظمًا جدًا فى مواعيده .. يقسم وقته تقسيما حادا ويستغل هذا الوقت فى تغذية عقله ثم نجد عصارة هذا الغذاء فى عاموده اليومى (مواقف) وفى كل ما يكتب سواء فى أخبار اليوم أو مجلة

اكتوبر أو فى الأهرام ..أو فى كتبه.

استدعانى يوما إلى مكتبه وقال:

سيزور مصر بعد أيام الشاعر الروسى (يفتشنكو) .. وسوف ينشد شعره أمام الجمهور المصرى .. وله قصيده مهمة بعنوان (ارفع شموعك عاليا أيها التاريخ) وهى قصيده ممتازه .. وأقترح عليك ترجمتها شعرًا.

قلت له : لكننى لا أعرف الروسية.

قال: سأعطيك ترجمتها نثرا عربيا .. وباللغة الإنجليزية أيضا.

سهل أنيس منصور علىّ المهمة..

وبالفعل قرأت الترجمة العربية وقرأت الترجمة الإنجليزية .. لكننى وجدتنى أسترسل فى القصيدة حتى صارت ثلاثة أضعاف القصيدة الأصلية.. فلما قدمتها إلى أنيس منصور علق وقال:

إنك كتبت قصيدة أحمد سويلم بأفكار يفتشنكو ..

قلت : لقد أثارت فىّ الكثير من المعانى ..

ونشر أنيس منصور القصيدة فى الملحق الأدبى للأخبار الذى يشرف عليه فى ٤ يناير ١٩٧٠.

وكان ديوانى الأول قد صدر عام ١٩٦٧ بعنوان (الطريق والقلب الحائر) فكتب أنيس منصور فى بابه (أخبار الأدب) يشيد به فكان أول كاتب يعلق على أول ديوان لى..

وتمر الأيام .. وتقلبنا ظهرًا لبطن .. وبطنًا لظهر .. وألتحق بالعمل فى دار المعارف عام ١٩٧٧ .. وكان أنيس منصور رئيسًا

لمجلس الإدارة.

وقصة التحاقى بدار المعارف لم تكن عن طريق أنيس منصور وإنما كانت عن طريق صديقى الفنان التشكيلى إسماعيل دياب مدير السكرتارية الفنية بالدار.

لقد لقينى وسألنى : أين تعمل؟ قلت: فى الهيئة العامة للكتاب.. فقال : أتقبل بأن تعمل معنا فى إدارة النشر فى دار المعارف ..

أجبته بالموافقة.

وعلى الفور صعدنا إلى الأستاذ ابراهيم زكى خورشيد وحررت طلب العمل ووافق عليه..

وبعد نحو ثلاثة أشهر وجدت نفسى وجهًا لوجه أمام أنيس منصور على سلم المؤسسة .. فرحب بى .. وقال: أين أنت؟.

قلت : أنا هنا أعمل عندك ..

ضحك أنيس وقال: أين .. فى النشر..

قلت : نعم .. قال: إذن أنا فى انتظارك فى أى وقت ..

وتعددت لقاءاتنا بحكم العمل ..

وكان يعرض علىّ دائمًا أن أعمل معه فى مجلة أكتوبر .. لكننى كنت أقول له:

دعنى فى دار المعارف فإننى أحب هذه المهنة .. واطلب منى ما تشاء فى مجلة أكتوبر.

وبالفعل .. كنت أكتب فى المجلة بين الحين والآخر وأنا فى مكانى..

وفى عام ١٩٨٧ بدأ أنيس منصور يكتب عن الشعراء فى أخبار اليوم .. صفحة أسبوعية بعنوان : أنتم الناس أيها الشعراء..

كتب عن الصديق فاروق جويدة - والشاعرة جليلة رضا من الشعراء المعاصرين بعد أن كتب عن شوقى وشعراء المهجر..

والتقينا مصادفة .. ورأيته يقول:

أريد أن أقرأ شعرك وأكتب عنك .. أحضر لى غدًا دواوينك.

كنت قد أصدرت حتى عام ١٩٨٧ سبعة دواوين .. لكننى حملت له فقط ثلاثة منها .. حتى لا أثقل عليه ..

دخلت غرفته الكائنة فى الدور الثامن والتى تطل على النيل .. فرحب بى ثم قلت له .. وأنا أعنى أن أستفزَّ داخله ..!

أستاذ أنيس.. أريد أن تقرأ.. فإذا لم يعجبك شعرى ألق به فى النيل من هذه النافذة.. ولا تكتب.

ابتسم أنيس منصور .. وأخذ الدواوين الثلاثة .. واستأذنت فى الانصراف دون أن أسمع منه أى رد على استفزازى له ..

وبعد أيام قليلة استدعانى لمكتبه .. وقال : معك صورة .. قلت لماذا .. قال: أنت فعلا شاعر .. وقد كتبت عنك .. راجع مع - نبيل - سكرتيره - ما كتبت .. تفضل .. واحضر صورة لك .. كان عنوان الموضوع: الشاعر الصعلوك أحمد سويلم وكان مما قاله:

على الرغم من أن شاعرنا أحمد سويلم قادر على أن يكون تقليديا.. فهو يملك الموسيقى والصور البلاغية والتدفق وحرارة الأداء.. غير أنه قرر واستقر على أن يكون هكذا يؤدى ولا يهمه

كثيرا أن يطربك .. إنه يغنى لنفسه ويطرب كثيرا .. وأحيانًا ينقل عدوى الطرب إليك.

وهو شاعر يكون فى لياقته الشعرية عندما يتعمق نفسه ويتحسس مشاكله الفنية والوجدانية .. هو مثل دودة القز تنسج فنها وكفنها معًا.. وتتعلق فى شقفة حريرية..

مجنون أحمد سويلم .. ومتمرد ...

إنه صعلوك .. خارج على القبيله .. لا يحترم العهود ..

وهو كثيرًا ما يكون غاضبا .. طبيعى .. فالذى يمسكه فى يده هو قلبه .. وأحيانا عقله .. وأحيانا يكون القلب هو الذى يمسكه والعقل هو الذى يعصره .. كأنه جنين فى بطن قلب أو فى جوف عقل..

إنه من صعاليك العصر الحديث .. واحد من أبناء الغضب والسخط .. إنه يمزق قيوده .. يغير جلده .. يلف أعصابه حول عنقه ويشنق معه المعانى.. وليس الأدباء فى بريطانيا.. ولا الصاخبون فى أمريكا إلا صعاليك العصر الحديث.. لقد خرجوا على القبيلة ولكنهم ليسوا مثل عروة بن الورد أو حاتم الطائى يسرقون ويتصدقون بما سلبوا ونهبوا.

والمقال طويل .. صفحة كاملة من جريدة أخبار اليوم .. مملوء بقصائد من شعرى يدلل بها على آرائه .. وقد نشر هذا الموضوع فى ٢٦ ديسمبر ١٩٨٧ ، ثم صدر فى كتاب له يضم عددًا آخر من الشعراء بعنوان (أنتم الناس أيها الشعراء).

وأتذكر أنه طلب منى ترشيح بعض الشعراء ليكتب عنهم.. فكتب عن بعضهم وعزف عن الآخر .. ولما سألته عن عزوفه

عن أحد الشعراء الكبار.. الذى كتب عنه نقاد كثيرون .. كان رده: أنا لست ناقدًا .. لكننى متذوق .. وهذا الشاعر لم أستطع تذوقه .. ولا هو ساعدنى على ذلك.!

كما كتب عن إحدى الشاعرات الكبيرات ما آلمها وأهان مشاعرها .. كتب يقول:

إنها سمعت عن الحب ولم تجربه.!

حكم قاس على امرأة شاعرة...

ومرة أخرى يستدعينى أنيس منصور - وقد قرأ مسرحيتى: أخناتون - التى نشرت فى الأهرام على حلقات عام ١٩٨٧ بإشراف الكاتب الكبير ثروت أباظة .. وقرر أنيس منصور أن ينشرها فى كتاب يصدر عن دار المعارف .. ولم أكن أرغب أن أنشر شيئا فى دار المعارف التى أعمل بها لكنه بروحه العالية أصرَّ على ذلك .. وصدرت المسرحية فى كتاب عام ١٩٨٩.

أتذكر أيضا أن أنيس منصور كان يرأس تحرير مجلة (العروة الوثقى) التى كانت تصدر عن الجامعة العربية.. وقد أوكل بعض الزملاء فى مجلة أكتوبر فى إصدارها أول كل شهر عربى.. وذات يوم استدعانى.. وكان غاضبا جدا.. ثم قال: إياك أن ترفض ما أعرضه عليك.

توجست من كلامه .. لكننى لم أجب لأنه كان غاضبا .. فواصل كلامه:

سوف أوكل لك ولإسماعيل دياب إصدار مجلة (العروة الوثقى) من العدد القادم .. تفضل .. خذ أوراقها وموادها من (فلان)..

لم أشأ أن أرفض وهو فى هذه الحالة الغاضبة .. وبالفعل قمت أنا وزميلى الفنان إسماعيل بالعمل .. واستطعنا أن نصدرها فى وقتها بلا تأخير.

ثم اتصل بى الشاعر الكبير محمد التهامى وكان مستشارا فى الجامعة العربية وأخبرنى بوجود شيك بمبلغ ١٠٠٠٠ جنيه .. مكافأة تحرير المجلة..

وأحضرت الشيك وصعدت إلى الأستاذ أنيس .. وقدمته إليه فسألنى:

ما هذا .؟

قلت: شيك خاص بمكافآت التحرير..

قال : غريبة .. لم أتسلم هذا الشيك لأى عدد صدر من قبل ..

قلت : لا أدرى .. لماذا ..

فقال : إذن اكتب لى واقترح مكافآت الذين عملوا معك فى المجلة .. وقد كان..

وأتذكر أيضا أن زوجتى الإذاعية «رباب البدراوى» اتصلت بالأستاذ أنيس لتسجيل سهرة رمضانية بعنوان: « دعوة على السحور» لصوت العرب ففوجئت بالأستاذ أنيس يستدعينى لأشارك فى هذه السهرة مع الفنان الصحفى محمد قابيل والكاتبة الصحفية منى رجب والكاتب الصحفي حاتم نصر فريد .. وحاولت أن أعتذر حرجا من وجود زوجتى مقدمة البرنامج .. لكن أنيس منصور أصر على وجودى قائلا: أنا صاحب الدعوة..

obeikan.com

وأنت شاعر .. لا علاقة لى بعلاقتك مع مقدمة البرنامج..

وأختتم ذكرياتى مع أنيس منصور بهذا الموقف الذى حدث فى مسرح معهد الموسيقى العربية حيث كنا نحتفل بمرور ٣٠ عاما على إنشاء اتحاد الكتاب (٢٠٠٥).

كانت قد مرت فترة طويلة لم نلتق.. فسمعت صوته خلفى يتحدث وأنا لا أخطئ صوته.. فتلفت.. وتعجبت.. فقد كان يصبغ شعره بلون يميل إلى الاصفرار.. مخفيا لون الشيب الجميل.

وكنا فى فترة الاستراحة بعد أن أدت فرقة الموسيقى العربية لحن عبد الوهاب (قصيدة فلسطين)

أخى جاوز الظالمون المدى

فحق الجهاد وحق الفدا

سلمت عليه بالطبع وكان قد بدأ جدالًا مع د. عبد العظيم رمضان الذى يجلس قريبا منا .. وكان الجدل حول كلمة (حق) هل نضع فَتحة على الحاء أم ضمة .. كان الدكتور عبد العظيم مصرًا على وضع الفَتحة ..

وكان الأستاذ أنيس مصرًا على وضع الضمة ويستشهد بالقرآن فى قوله تعالى فى صورة الانشقاق : (إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢)) ثم توجه الأستاذ أنيس إلىّ وسألنى: ما رأيك يا شاعر:

فقلت : حَق الأمر حَقا: أى صح وثبت

وحُق له أن يفعل كذا: أى حَق..

وعلى كل المعنيان متقاربان مثلما نقول: دَقَّ الجرسُ .. ودُقَّ الجرس..

وأنهيت بينهما الاشتباك ..

ولم تنقطع صلتى بأنيس منصور حتى بعد أن ترك دار المعارف ومجلة أكتوبر.. فلطالما التقينا فى مناسبات كثيرة.. فيصر أن يناديني: أهلا بالشاعر الصعلوك.!.

obeikan.com

توفيق الحكيم

واليقظة الفكرية

سأله الصديق الكاتب الصحفى إبراهيم عبد العزيز عن شخصية فأجاب توفيق الحكيم:

توفيق الحكيم شخص لا أعرف شيئا عنه كثيرا.. وأقرأ عنه أحيانا بعض ما ينشر عنه فأراه شخصا آخر.. أما أنا فأسأل نفسى دائما: ما المهمة التى كلفت بها فى هذه الحياة الموقوتة .. وكلما سرت فى طريق حياتى فطنت فجأة إلى أن هذا الطريق ليس هو الطريق الذى تصورته .. ولو كان فى طريق حياتى لافتات مثل لافتات المرور تنبهنى إلى أن هذا الطريق يؤدى إلى جهة كذا كنت تنبهت من أول الأمر ولم أواصل المسير.. فأنا إذن مخلوق ضحية عدم وجود لافتات مرور فى شارع حياتى الطويل.

من هذه الإجابة ندرك حيرة توفيق الحكيم.. وندرك أنه لولا عدم وجود هذه اللافتات التى قد تحدد خطواته.. لما كان توفيق الحكيم المفكر والمسرحى والأديب والناقد وصاحب الرؤية النافذة.

فالمبدع لابد أن يكون حرا.. يقظًا.. لا حد لخطواته.. ومن ثم فهو يبتعد عن الأحزاب السياسية .. وعن السلطة.. لكى تغذيه الحرية بإبداعه.

ومنذ فتح عينيه فى الإسكندرية على البحر والطفولة البريئة ثم انغماسه فى جوقات المشخصتية ومشاركته فى ثورة ١٩١٩ .. أدرك أن الفن يمكن أن يكون خلاصا وأسلوب حياة.. ولكى يحقق ذلك .. لم يكن منعزلا عن صراعات العصر وتناقضاته.. بل رحل إلى باريس ليتشرب نورها وثقافتها وعاد برؤية تقدمية تجلت فى أعماله المختلفة.. وكانت عودة الروح، ملهمة للزعيم جمال عبد الناصر للقيام بثورة ١٩٥٢.

ويدخل توفيق الحكيم معارك كثيرة فى السياسة والأدب من أجل حرية التعبير.

وحينما تجلس إلى توفيق الحكيم تشعر بجاذبية شخصيته.. وحديثه الذى يجمع بين الجدية والسخرية معا.. والذى يمتلئ بحكمة السنين وتجارب الحياة واليقظة الفكرية التى لازمته إلى آخر لحظة من عمره..

وللحكيم آراء مهمة فى أهمية الدين لدى الإنسان بالمعانى الحقيقة التى بنى عليها ، وإذا تعارض العقل مع النقل نأخذ بالإيمان .. لأن النظريات العلمية تتغير من عصر إلى عصر.. لكن الإيمان لا يتغير بتغير العصور.. فنظرية نيوتن مثلا غيرتها نظرية إينشتين.. لكن الإيمان ثابت.

وكان يقول أيضا:

لماذا نتمسك بالجلاليب .. ولم تكن الجلاليب خاصة بالمسلمين

فقد كان يلبسها المسلم وغير المسلم.

ولماذا نتمسك بالذقون.. والذقون كان يطلقها المسلم وغير المسلم، فالإسلام مع المنفعة .. فإذا وجدت منفعة يجب أن نأخذ بها.. وإذا وجدنا شيئا ليس فيه منفعة نبتعد عنه.. هذا هو الجوهر .. والقاعدة الإسلامية تقول: لا ضرر ولا ضرار.. وهذا هو الإسلام..

أما عن حرية الرأى لدى الكاتب فيقول توفيق الحكيم:

التفكير الحر هو التحرر من كل القيود، إذ بمجرد التقيد.. تتعطل فى الحال آلة التفكير الحر.. والتفكير الحر قد يستطيع أن يتحرر من كل مبدأ إلا مبدأ حرية التفكير.. ذلك كان النضال بين أحرار المفكرين وبين الزعماء المروضين.. إنه نضال حياة أو موت.!

وكنا جيل أعجب بهذا الرجل متعدد الإبداع الذى استطاع بحنكة وقدرة خارقة أن يمزج ثقافة الأجنبية بثقافة العربية دون أن يتخلى عن هويته.

لهذا كان متقدما ومتطورا فى أفكاره..

وأتذكر أنه فى النصف الأول من عام ١٩٨٦ فتح النار على الشعر والشعراء خاصة جيلنا الذى كان يكتب شعر التفعيلة..

وكتب يطالبنا بالبحث عن شكل جديد للقصيدة الحرة نستمده من القرآن الكريم بدل الشكل الحالى المستمد من أصول أوربية.. وصرح بأنه يقصد من هذا أن يجد الشعراء سندًا عربيًا يعتمدون عليه.. (فالقرآن يتميز من حيث الشكل بأنه شكل حر أى أنه لا يتقيد بنظم ولا قافية.. وهذه الحرية التامة نبع

منها هذا التعبير العظيم .. لكن لا أقصد محاكاة القرآن من حيث الموضوع والمضمون ولا يصح مجرد التفكير فى ذلك .. وإنما يجوز فقط الانتساب إليه من حيث الحرية والشكل الحر.)

وحينما قرأت هذا الرأى أدركت أن هذا الأديب الكبير كون رأيه عن أشعارنا دون أن يقرأها .. وأحسب أن شعراء التفعيلة منذ صلاح عبد الصبور مرورا بالأجيال المتتابعة كان القرآن الكريم والفكر الدينى والصوفى .. مصدرا من مصادر هؤلاء الشعراء..

قررت أن ألتقى به.

واتصلت بصديقى الكاتب الباحث والشاعر الأستاذ عبد العزيز شرف الذى كان يشرف على الصفحة الأدبية فى الأهرام وعرضت عليه رغبتى فى لقاء توفيق الحكيم فى الأهرام.

وتم اللقاء فى مكتبه.

أخذ الحكيم يتحدث عن الموسيقى والطرب والشعر التراثى والإنشاد بجاذبية وإمتاع ..

ثم استأذنته بسؤال عن رأيه فى الشعر الحديث.. فضحك وقال: أكيد لم يعجبك رأيى.. أنا قرأت لك مسرحيتك أخناتون وأعجبنى شكل الشعر الذى كتبتها به .. لكنى لا أستسيغ هذا الشكل فى القصائد..

سألته: وهل قرأت يا سيدى قصائد لأى شعراء يكتبون بهذا الشكل..

أجاب: الحقيقة لم أقرأ..

وهنا بادرته قائلا:

أنت المفكر والرائد توفيق الحكيم.. ورأيك يحترمه القارئ لأنك لا تقول شيئا دون أن تمحصه وتدقق فيه.. فما رأيك لو أحضرت لك نماذج من هذا الشعر.. ثم تكون رأيك بعد ذلك.

رحب الرجل باقتراحى.. لما رأى فيه من المنطق السليم..

وبالفعل عدت إليه بعد أيام بثلاثة دواوين.. ديوان لى.. وديوان للشاعر فاروق شوشه.. وديوان للشاعر محمد أبو سنة..

نحن إذن نمثل جيل الستينيات فلا بأس من معرفة رأى الرجل .. وتركت له فرصة القراءة وتكوين الرأى..

ثم أحلت عليه صديقى الكاتب الصحفى إبراهيم عبد العزيز ليسأله عن نتيجة قراءته للدواوين الثلاثة.. ففضل توفيق الحكيم أن يكتب مقالا مطولا فى مجلة الإذاعة فى ٥ يوليو١٩٨٦ جاء فيه:

لقد أحسن بعض زعماء الشعر الحر البارزين اليوم بارسال بعض نماذج من شعرهم الحر وهم : فاروق شوشه - ومحمد أبو سنة - وأحمد سويلم ، وأنا لسبق اشتغالى بالقضاء ما كان يهمنى كثيرا الإصغاء إلى المرافعات الطويلة للمحامين .. بل كان يكفى شاهد إثبات واحد ليقنعنى .. وشاهد الإثبات فى هذه القضية هو شعرهم وحده.. ولو ظلوا يتجادلون بالألفاظ ويسوقون الحجج والبراهين لما ظفروا بشئ .. ولكننى عندما سمعت شاهد إثباتهم .. واطلعت على نماذج من شعرهم وضحت أمامى القضية.. بل خرجت منها بالنقطة الفاصلة: ما هو لب الجوهر فى الشعر الحر..؟

وجدته فيما يمكن أن أصفه بكلمة: عرق الذهب.

نعم.. عندما نذهب لاكتشاف (منجم) ماذا نفعل؟

إننا نجمع حفنة من التراب أو الحجر أو الحصى.. ونذهب لنحلله.. فإذا وجدنا فيه عرق الذهب فإننا نعلن ظافرين اكتشافنا لمنجم ذهب.

والشعر الحر الحقيقى عندما نكتشف فيه عرق الذهب المختفى فيه فإنك تفرح للاكتشاف .. وتبقى لذة الاكتشاف مستمرة.. لأنها ليست خاطفة.. وتشعر المكتشف باحترامه لنفسه لأنه اكتشف من بين التراب ذهبا.. وهذا فضل الشعر الحر وصعوبته أيضا.. لأن قيمته فى ذاته.. إنه يحتاج منك أن تكتشفه لا أن تصفق له.. لذلك إذا أردت أن تدافع عن شعراء الشعر الحر الموهوبين الذى اتهموا بأنهم حطموا القيود.. عجزا واستسهالا فإنى أقول: العكس هو الصحيح، فهم قد حطموا القيود.. كما يحطم الفارس الشجاع درعه.. وينزل إلى الحلبة عاريا ليس معه سوى قوته الذاتية الحرة وحدها..

ويواصل الحكيم رأيه ودفاعه بقوله:

من حسن الحظ أنى تحركت لرفع الظلم عن الشعر الحر الجيد ، وأنا بطبيعتى مع الحرية فى الفن والأدب لأنه من باب التجديد .. ولكن الباب المفتوح يغرى بالدخول لمن يستحق ولمن لا يستحق.. ويؤدى أحيانا إلى الفوضى.. ولذلك استرحت الآن واستراح ضميرى إذ وقعت فى يدى أعمال هؤلاء الشعراء البارزين.. فاخترت نماذج قليلة من هذا الشعر الحر الحقيقى.. وكان بودى أن أكثر من الاختيار لولا مساحة النشر.

ولكن هذا يكفى لإقناعنا أن التراب الذى يملأ الأرض قد

نجـد أحيانـا فى القليـل منـه (عـرق الذهـب)

ثم قدم الحكيم نماذج شعرية لثلاثتنا..

وذهبـت أشـكره عـلى هـذا الـرأى المنصـف .. وقلـت لـه: أرأيـت يـا سـيدى أهميـة رأيـك الـذى يحترمـه القـارئ..

ضحك توفيق الحكيم وقال:

معك حق والله..

وكسـبنا إلى جانبنـا مفكـرا وكاتبًـا ومبدعًـا كبـيرًا .. هـو توفيـق الحكيـم.. والـذى أكـد لنـا سـعة صـدره وتجـرده وموضوعيتـه فى الحكـم عـلى الأمـور بعكـس أدبـاء ونقـاد آخريـن وقفـوا فى مواجهـة الحركـة الشـعرية الجديـدة موقفـا عدائيـا دون أن يقـرأوا أو يسـمحوا لأنفسـهم بالمراجعـة.. ووصـل الأمـر ببعضهـم باتهـام الشـعراء الجـدد بالشـيوعية .. ولـو أنهـم تجشـموا الجهـد قليـلا مثـل توفيـق الحكيـم ، لأدركـوا أن الشـعراء الجـدد مخلصـون للوطـن وللهويـة العربيـة .. وللثقافـة التراثيـة ويتجـلى ذلـك فى إبداعهـم..

وعـلى كل خمـدت نـيران هـذه المعركـة بـرأى توفيـق الحكيـم الـذى كان يمثـل قيمـة فكريـة كبـيرة بـين مفكـرى عـصره وأدبائـه..

وكان الحكيـم قـد دخـل معركـة مـع الشـيخ الشـعراوي عـام ١٩٨٣ عقـب نـشره سلسـلة مقـالات بعنـوان حديـث مـع الله.. واتهمـه فيهـا الشـعراوي أنـه يدعـو للتطـاول عـلى الـذات الإلهيـة.. ونـاصر الحكيـم د. يوسـف إديـس ود. زكـى نجيـب محمـود.. وكادت تحـدث مناظـرة بـين الشـعراوي والمفكريـن حـول هـذا الموضـوع لكنهـا لم تتـم.. وأخمـد الحكيـم بنفسـه أوار هـذه المعركـة بعـد شـهر مـن الاشـتعال حـين كتـب فى الأهـرام يقـول:

ألهمني الصواب يارب.. فأنا أخشي أن أكون مخطئا فى حديثي إليك.. فلقد أنشأت فى هذا الحديث علاقة بذاتك العلية ليست مما يستسيغه الناس بين الخالق والمخلوق.. ولم يفهموا أنها مجرد مناجاة حب علوي ليس مما يفهمه أو يؤخذ بالمدلول العادي من أنه تطاول على الذات الإلهية.. وهو ما لا يمكن أن يخطر على بال أي مؤمن بالله ورسوله.. وحسبي الله ونعم الوكيل فيمن يفهمني خطأ ورماني بالضلال دون أن ينتظر حسابك أنت يا ربي يوم الحساب.. ومع ذلك ألتمس منك المغفرة لمن ظلمني ولي وإن كنت سهوت أو أخطأت وأنت الغفور الرحيم.

وتصالح الشعراوي والحكيم بعد ذلك..

فعلا الرجوع إلى الحق فضيلة.. وقد كان الحكيم يعود إلى الحق دائما.

يحيى حقى

وسيمفونية العشق

فى ذكرى الفنان محمود مختَار .. كتب يحيى حقى فى جريدة التعاون عام ١٩٦٧ :

لا عجب أن كان اسمه مختار .. ليضع بين جنبيه لا روحه هو وحده بل من داخلها روح مصر ذاتها.. ليكون فنانها الأول الأوحد لم يسبقه أو يلحقه أحد .. ليعبر عن أصالتها وعظمتها .. عن إبائها وكبريائها.. عن كدحها وصبرها ... هذا هو محمود مختار الذى رحل فى يوم ٢٧ مارس ١٩٣٤ عن ٤٣ عاما وأتصوره يطوف بآثاره القائمة فى ميادين القاهرة والإسكندرية بل أدعو القارئ أن يذهب إلى هذا المتحف الصغير الجميل فى أرض الجزيرة .. ويخلع عند هذا الباب مشاغله وهمومه .. ويقف أمام هذه الآثار الرائعة: العودة من الريف - مناجاة الحب - على شاطئ النيل - عند لقاء الرجل - حارس الحقول - العودة من النهر - مالئة البلاص - بائعة الجبن . وأن يقف طويلا أمام تمثال (الخماسين) ليرى كيف يداعب الريح الحجر.. وكيف يرق هذا

الحجر حتى يصبح وهو غليظ كالحرير الشفاف.

كان يحيى حقى يحمل إحساسا متفردا بالجمال الفنى .. وله كتابات كثيرة عن الفنانين والأدباء تؤكد هذا الإحساس .. وهو يرى أن قراءة الصورة تختلف من إنسان إلى آخر بقدر ما يملكه الإنسان من الإحساس والثقافة.

وأتذكر يوما ذهبت فيه مع بعض أصدقائى إلى قاعة الغرفة التجارية بباب اللوق .. لزيارة معرض مجمع لخمسين فنانا مصريا.. عرض كل فنان لوحتين..

وبدأنا نقف عند كل فنَّان ونحاول تذوق فنه..

ثم حانت منى التفاتة إلى الجهة المقابلة للقاعة فجذبتنى لوحة (بورتريه) لامرأة فتركت أصدقائى واستجبت إلى هذه اللوحة .. وكأن شيئا ما سحريا قادنى إليها.. فاكتشفت أنها للفنان (حسين بيكار) ولكى يؤكد قيمة ووجود هذه اللوحة كانت لوحته الأخرى التى شارك بها وجاورت هذه اللوحة لبعض العشب الأخضر .. أى مستمدة من الطبيعة.

وقفت أمام هذه اللوحة مستغرقا فى التأويل والإحساس ..

وسرعان ما انضم إلى أصدقائى.. وبدأنا نؤول الشخصية النسائية التى رسمها (بيكار) .

قلت: أرى أنها امرأة خرجت من أزمة عاطفية (فاشلة) لكنها لم تستسلم .. بل تدل نظراتها على التحدى ورفض الفشل.

بالطبع اختلفت الآراء .. والرؤى..

لكن هذه اللوحة ظلت مرسومة على صفحة ذاكرتى حتى التقيت (بيكار) ذات يوم.. وحكيت له هذه التجربة..

ابتسم الفنان الكبير .. وتعجب من هذا التأويل ووافقنى عليه موافقة كاملة .

وبدأنا نتحدث عن هذا الإحساس المشترك بين الشاعر والرسام..

أعود إلى يحيى حقى الذى يحمل إحساسا مرهفا بالجمال وهو يتحدث عن المرأة فيقول:

لعل أبلغ دلالة فى نظرى على قدر المرأة عندى أننى من أجلها وحدها لا ينقطع تحسرى أن معبد الشعر مغلق فى وجهى بالضبة والمفتاح - لا أملك الدخول إلى محرابه ولو من سلم الخدم - فإنى أراها أسمى من أن أخاطبها بالنثر .. حقها أن يصاغ لها قصيدٌ جماله من قبس جمالها .. ورقته من وحى رقتها.. حتى ولو كان الكلام لا يزيد عن (صباح الخير) أو (كيف الحال)

فتهمة التحامل على المرأة منفية عنى إذا واجهت إليها كلاما لا أطيق كتمانه.. إنه منبعث من قلب جريح.. وما كانت طعنته إلا من يد هذه المرأة التى أجلها وأحبها إلى درجة الوَله.

ويبدو أن المرأة عند يحيى حقى كانت شغله الشاغل فى رواياته المتعددة : خليها على الله - صح النوم - قنديل أم هاشم - عطر الحبايب .. وغيرها .. وهى تمثل محطة مهمة فى فن البورتريه القلمى..

وقبيل رحيل يحيى حقى بسنة (رحل فى ٩ ديسمبر ١٩٩٢) كان

ضيف صالون الدكتورة (هيام أبو الحسين) أستاذة اللغة الفرنسية بجامعة عين شمس..

ظل يحيى حقى يتحدث عن ذكرياته وعلاقته بالفن والمرأة حديثا طويلا شائقا..

ثم بدأت التعليقات..

ذكرته بما كتب فى الفقرة السابقة عن المرأة فى حياته.. فابتسم وقبل منى هذه المداعبة .. وأنا مصرّ على أن أسمع منه المزيد..

لكنه وبذكائه اللامع .. واجهنى:

لازم الشقاوة دى يا شاعر ..

قلت له: ما لها الشقاوة .. هى التى تفجر الشعر والفن – أليس كذلك.

قال: ما دمت مصرًا سأسألك سؤالا صعبا..

قلت : اسأل يا سيدى..

قال: أنت شاعر وقارئ للتراث .. إذن ما الفرق بين العاشق القديم والعاشق المعاصر..

أدركت أنه يرد إلى الكرة لتكون فى ملعبى .. وضحك الحاضرون..

استجمعت نفسى.. وأجبت :

أولا .. ما العشق.؟

اختلف الفلاسفة والعشاق والمتيمون فى تعريفه.. ولم يفلح منهم

أحد فى الوصول إلى تعريف جامع مانع- كما يقولون - وغاية ما وصلوا إليه هو تناول صفاته وأحواله واشتقاقاته اللغوية.

فعل ذلك ابن حزم فى رسالته (طوق الحمامة).

ومن قبله أوفيد فى كتابه (فن الهوى «٤٣ - ١٨ ق.م»).

وابن داود فى كتابه (الزهرة).

وغيرهم كثير.....

ويمكن أن نقول إن الصورة الشائعة للعشق لدى القدماء تعتمد على الحب العذرى بما فيه من الحرمان والصد والهجر واللقاء والفراق والاكتئاب والفرح.

وتعتمد أيضا على الأدب الشعبى وحكاياته المتخيلة فى كتب النوادر والأخبار .

والعاشق القديم كان بينه وبين معشوقته حجاب .. أى أنه نادرا ما يراها ومن ثم جاءت قصص العشق لدى العذريين صورة شاحبة للحب المحروم.. من تحول الجسد .. إلى الكمد فالحزن... أى أن العاشق يكاد ينظر العالم من عيون معشوقته هى..

والعاشق القديم يراقب خيمة معشوقته المحجوبة عنه.. فإذا سمع صوتها كان أجمل وأحلى من أعذب موسيقى .. وإذا أتته الريح من تلقائها شم فيها عبيرًا ألذ من عبير الورد .. وإذا ذكرت فى مجلسه .. هام على نفسه وغاب فى ذكرياته وحلمه المستحيل .. وعبر عن ذلك كله فى شعره..

ومن ثم من يقرأ أشعار العشاق القدامى يلمس نزعة الجنون

والمبالغة فى رسم صورة المعشوقة لأنها مختفية عن عينيه .. بعيدة عن أذنيه.. يخفق قلبه خفقانا شديدا وهو ينشد عنها أشعاره ويتخيلها كأنها الحور العين فى جنة الأرض..

بل نجد عاشقًا مثل قيس بن الملوح يهيم على وجهه بحثا عن حبيبته فيتجه إلى الشمال ليجد نفسه فى الجنوب.. ويقف مناشدًا جبل التوباد بلا جدوى.

إذن كان العاشق القديم واسع الخيال.. يتخيل ويعبر ويبالغ ويجن.. أما العاشق المعاصر .. فقد شاركته المرأة حياته ووجوده فى العمل وفى الشارع وفى كل مكان..

لم تعد المرأة مختفية عن عينيه وعن أذنية..

ومن ثم كان عليه أن يبحث عن جوهر المرأة وعن شخصيتها وتفردها وتميزها.. وثقافتها.. وذكائها .. وأحسب أن هذا كله يكسبها جمالا..

تبدل المفهوم الجمالى لدى العاشق - الشاعر - فلم يعد يتخيل .. فالمرأة أمامه فى كل مكان .. إذن هى فرصة سانحة للمقارنة بين امرأة وأخرى فى كل ما يمكن أن يوضع فى حسابات المقارنة.

المرأة المعاصرة إذن ليست هى المرأة القديمة التى تسيطر عليها تقاليد القبيلة.. وتخفى نفسها خلف الخباء.

المرأة المعاصرة - سافرة - بجانب الرجل العصرى..

ومن ثم اختلفت نظرة العاشق المعاصر .. فنظر إلى عقلها وإحساسها معا.. وانبهر بشخصيتها وقدرتها على العطاء والحوار .. فاكتسبت جمالا خاصا معاصرا أرضى الشعراء الذين يقدسون

جمال المرأة الذى يعتمد على العقل والإحساس معا..

رضى الأستاذ يحيى حقى عن هذه الإجابة .. وأخذ الجميع يتحاورون .

ثم طلب منى أن ألقى بعض قصائدى التى تؤكد رأيى .. ففعلت ..

وكانت هذه الحوارات سببًا فى عكوفى على إصدار كتابى (مجانين العشق العربى)

ولاحظت - برغم كبر سنة (١٧ يناير ١٩٠٥ - ٩ ديسمبر ١٩٩٢) أن ذاكرته ناصعة .. وأنه حكّاء عظيم .. وأنه رقيق الصوت.. هامس النغم.. مرهف الحس .. وهى صفات تتجلى فى هذا الجيل الرائع الذى يضم صفوة المفكرين والعظماء.

هذا يحيى حقى الذى لم يهتم كثيرا بالشهرة بقدر اهتمامه بالعمل والإنجاز الأدبى والإضافة الباقية حتى بعد رحيله.. ونحن هنا نذكره أديبا روائيا مفكرا عاشقا للتراث والفن والموسيقى .. ومجددا فى كل شئ .. ومن ثم وصلت إلينا أعماله تؤكد شخصيته المتفردة.

ولا نستطيع أن نغفل موقفه عام ١٩٧١ حينما انتقل من رئاسة تحرير مجلة المجلة إلى جريدة التعاون ليكون كاتباً متفرغاً.

وبمجرد أن علمت الأهرام بترك يحيي حقي لمجلة المجلة طلبت منه أن ينضم إلى الأهرام بالمبلغ الذى يحدده.. لكن يحيي حقي اعتذر عن عدم قبول هذا العرض قائلا:

ليتكم عرضتم ذلك قبل أيام فقد تعاقدت مع جريدة التعاون.

لقد فضل يحيي حقي (التعاون) وهى جريدة عمالية محدودة التوزيع على الأهرام وكان يري أن الكتابة للعمال ضرورة وطنية لا تقل عن الكتابة للمثقفين أو للعالم العربي كله.

ويرفض يحيي حقي العرض نفسه مرة أخرى ليؤكد أن صاحب قنديل أم هاشم حر الإرادة والرأي.

obeikan.com

صلاح عبد الصبور

الشاعر الإنسان

يكفي أن تجلس إليه خمس دقائق.. حتى تشعر أنكما صرتما أصحاباً..

شخصية آسرة.. تدخل إلى القلوب مباشرة.. وتشعرك بأنك الأثير المفضل لها..

احتضن أجيال الشعر المختلفة.. مشجعاً وموجها.. وراعيا.. حتى صار لكل شاعر - أو أديب - موقف كريم معه لا ينساه.

ولأنه تقلب فى وظائف ثقافية متعددة.. فقد استطاع من خلال هذه الوظائف أن يكتشف ويخرِّج أجيالا من الأدباء والشعراء الذين رسموا خريطة الثقافة بامتياز منذ الستينيات حتى اليوم.

وصلاح عبد الصبور تعددت ألوان إبداعاته.. حيث كتب القصيدة الشعرية فى عدة دواوين وكتب عدداً من المسرحيات الشعرية.. وله عدة كتب ضمنها نظراته النقدية الثاقبة.

وأتذكر أن أول مسرحية شعرية له هى (مأساة الحلاج) التى نشرت فى عام ١٩٦٤ وكنت آنذاك فى السنة الثانية فى كلية التجارة

obeikan.com

جامعة الأزهر.. فقمت بترشيحها لجامعة الأزهر لكي تشترك بها في مهرجان المسرح الجامعي.

واستدعينا المخرج سمير العصفوري وأقنعناه بالمسرحية.. ثم اتصلت بالأستاذ صلاح استأذنه في ذلك فكان جوابه بالموافقة ورجاني أن أدعوه لحضور العرض.

ويوم العرض حضر صلاح عبد الصبور وبرفقته د. لويس عوض وغالى شكرى وبعض الأدباء.. ودعوته قبل العرض لإلقاء كلمة من فوق المسرح.. وفي نهاية العرض شكر صلاح المخرج والممثلين (طلبة الجامعة) على هذا العرض الشائق.

ثم انتقلت المسرحية إلى المسرح القومي وأخرجها المخرج نفسه (سمير العصفوري) وأتذكر أنني كنت جالساً في العرض الأول بجوار صلاح عبد الصبور.. وحينما انتهي العرض سألته: ما رأيك.

أجاب بكل صدق: والله.. عرض جامعة الأزهر أفضل.

وتمر الأيام وأصدر ديواني الأول (الطريق والقلب الحائر) عام ١٩٦٧ وذهبت به إلى الإذاعة (البرنامج الثقافي) وقدمته إلى الأستاذ إبراهيم الصيرفي مقدم برنامج (مع النقاد).

سألني الصيرفي: أهذا هو الديوان الأول؟

أجبت: نعم..

قال: آسف.. مع النقاد لا يناقش الديوان الأول.. وهناك برامج أخرى تقدم العمل الأول.

قلت له في إصرار: لكنني أريد أن أناقشه في برنامج مع النقاد..

حاول الصيرفي أن يقنعني بوجهة نظره وأنا مصر بعناد على رأيي.. وحينما وجدني مصراً معانداً.. اضطر أن يسألني:

ومن تريد أن بناقشك؟

قلت بلا تردد: د. عبد القادر القط.. والشاعر صلاح عبد الصبور..

ابتسم الصيرفي عجبا وقال:

كيف.. وهذا هو الديوان الأول.. ربما لا يوافقان على المناقشة.

قلت: وأنا أتحمل النتيجة.

أعطيته ثلاث نسخ من الديوان.. وحدد لي موعداً للرد على بالموافقة أو بالرفض.

ذهبت إليه فى الموعد المحدد.. فوجدته فى انتظاري مبتسماً سعيداً.. وحينما رآني قال:

تعال.. تعال.. سوف يناقشانك.

لم أبد أي انفعال على وجهي.. وأدركت أنه كان سعيداً بهذه الموافقة أكثر منى فقلت:

الحمد لله يا سيدي

ثم فاجأني بسؤال: لماذا اخترت هذين الناقدين على وجه الخصوص.

قلت: لأنهما أكبر ناقدين فى مصر.

سألني: وهب أنهما رفضا المناقشة.

قلت بدون تفكير: لو كانا قد رفضا لتوقفت عن الشعر إلى الأبد.

هز رأسه وقال: ياه.. لسوف تكون شاعرا كبيرا والله.

وحضر الكبيران وناقشاني وأشادا بشعري.. وتوقعا لي مستقبلا فى الشعر.. والحمد لله.

وكان مما قاله د. عبد القادر القط.

يقف الشاعر فى مرحلة وسط بين الشعر القديم والشعر الحديث.. ويعبر فى عمق وأصالة عن تجارب هى فى الواقع أكبر من سنه.

ويقول صلاح عبد الصبور:

الديوان.. بشري لشاعر يستطيع من خلال حبه للشعر وممارسته له أن يكون فى الغد القريب صوتا من الأصوات المتميزة المحبوبة فى شعرنا الحديث.

وفى عام ١٩٧٠ تقدمت إلى صلاح عبد الصبور بديوان جديد.. وكان رئيساً لمؤسسة التأليف والنشر.. لكنه أخبرني أن لديه دواوين كثيرة جدا وحلاً لهذه المشكلة بدأ ينشر دواوين يشترك فيها بعض الشعراء.. وبالفعل صدر ديوان فى هذه السلسلة المجمعة.. وطلب منى سبع قصائد فقط اشترك بها فى ديوان مع شعراء آخرين.

ابتسمت وقلت: لن أستطيع أن أختار من هذا الديوان الجديد هذه القصائد المحدودة.. وسوف أحضر لك سبع قصائد تجمع بينها الفُرقة.

واجتمعنا - وكنا أربعة شعراء - ومعي فرج مكسيم ونصار عبد الله وعمر بطيشة نتداول فى كيفية إصدار هذا الديوان المشترك.

اتفقنا على أن يكون عنوانه: الهجرة من الجهات الأربع..

ثم اختلفنا على ترتيب الشعراء.. واتفقنا أن نحيل الأمر إلى صلاح عبد الصبور نفسه لترتيب الأسماء..

قال صلاح عبد الصبور:

الأول: أحمد سويلم.. شاعر له ديوان

الثاني: فرج مكسيم.. شاعر مسِن

الثالث: نصار عبد الله.. شاعر مقاتل (كان مجندا)

الرابع: عمر بطيشة..

وبهذا فك صلاح عبد الصبور الاشتباك ورضي الجميع بحكمه.. وصدر الديوان.

وكنت قد التحقت بالقوات المسلحة فى نوفمبر ١٩٦٨.. وكانت آثار نكسة ١٩٦٧ تجثم على صدورنا.

وفى أوائل عام ١٩٦٩ عقدت أمسية شعرية كبيرة فى الجمعية الأدبية بشارع عرابي بالقاهرة.. وكان مقدم الندوة هو صلاح عبد الصبور.. وكان الشعراء المشاركون كثيرون.

واشتركت فى هذه الأمسية بقصيدتين هما: قصيدة حزينة إلى روما (وكيف حرق نيرون روما) - ثم قصيدة (أما السفينة) مستلهما القصة القرآنية..

أنشد قبلي وبعدي شعراء كثيرون.. حتى انتهت الندوة.. ثم سأل صلاح عبد الصبور الجمهور الحضور: هل لدى أي أحد تعليق أو كلمة.

رفع أحد الحاضرين - وكان مجهولا للجميع - يده.. فسمح له صلاح عبد الصبور بالكلام.. فقال:

أريد أن أسأل الشاعر أحمد سويلم.. ماذا يقصد بروما ونيرون.

كان السؤال مفاجئا لكن صلاح عبد الصبور تولي الإجابة بقوله:

ما على الشاعر أن يقول.. وعلينا أن نفهم كما نشاء.. لقد استخدم الشاعر الرمز بكل مفرداته.. فكيف نحاسبه.

جادله السائل: لكنه رمز واضح.

قاطعه صلاح: ربما يكون واضحا لديك ولهذا أوَّلْته على هوالك.. وأري أن الشاعر هنا كان موفقاً فى رمزه.. تفضل اجلس.

وكفاني صلاح عبد الصبور خطورة هذا السؤال.. وكنت واثقا أن أمن الدولة له رجاله الذين يحضرون هذه الأمسيات ويحررون التقارير عما يقال.. ولهذا خرجت من الأمسية غير مصدق أنني سوف أبيت فى بيتي.. لكن الله ستر.

وأتذكر فى هذا السياق أن ندوة نجيب محفوظ التى كان يعقدها فى مقهى بميدان الأوبرا.. يحضر فيها شخص تابع لأمن الدولة مكلف بكتابة تقرير عما دار فى هذه الندوة.

ولأنها ندوة ثقافية كان الرجل يقع فى حيرة.. لأنه لا يفهم ما يقال.. وعندما تأكد نجيب محفوظ أن الرجل مكلف بكتابة

التقرير لكنه لا يستطيع أن يفهم ما يقال.. بدأ نجيب محفوظ يكتب بنفسه التقرير ويعطيه إياه قائلا: هذا ما قيل اليوم.. واكتبه بخطك وسلمه إلى رؤسائك.

نعود إلى صلاح عبد الصبور.. حيث تولي رئاسة الهيئة العامة للكتاب بعد الأستاذ سعد الدين وهبة.. وكون لجنة (١٩٨٠) لحصر الأعمال المقدمة التى لم تنشر وكتابة تقارير عنها.

وكنت قد تقدمت بديواني الخامس (الخروج إلى النهر) لسعد الدين وهبة وأشار عليه بالنشر.

ثم وقع الديوان فى يد عضو من أعضاء اللجنة يعادي الشعر الحديث.. فرفض الديوان.. بل أخذ يضع خطوطاً (بالقلم الرصاص) تحت بعض المفردات فى الديوان ويشير إليها على أنها (كفر وجنس.. وخروج عن الأخلاق).

وعلمت بذلك.. فذهبت إلى صلاح عبد الصبور فى مكتبه وكان معه د. أحمد هيكل.

أدرك صلاح أنني غاضب فسألني: ماذا بك.

قلت: لي الديوان الخامس وقد وافق عليه سعد الدين وهبة.. ورفضه أحد أعضاء اللجنة (وذكرت له اسم هذا العضو).

فقال: أنا لا أعرف والله أن لك ديوانا لدينا ولا أعرف هذا الشخص الذى ذكرته.

وقال د. هيكل: معقول يا صلاح.. فلان هذا يحكم على شعر سويلم.

قلت: أنا أقبل يا أستاذ صلاح أن تقرأ أنت الديوان وترفضه..

ضحك صلاح وقال: لا تقل ذلك.. اجلس واشرب قهوتك أولا.. حتى ندرس هذا الأمر..

قلت: قهوتي أشربها حينما أعرف النتيجة.

فقال: إذن اتصل بي غدا صباحاً الساعة العاشرة.. وانصرفت.

وفوجئت الساعة العاشرة من اليوم التالي بصوت صلاح عبد الصبور يأتيني عبر الهاتف يبشرني بأن الديوان دفع إلى المطابع..

بادرني هو بالاتصال.. ولم ينتظر حتى أتصل به.. فذهبت إليه أشكره فاستقبلني.. وشربت معه قهوتي.

ثم تلقي مكالمة هاتفية من الشاعر فوزي العنتيل من المجلس الأعلى للثقافة وسمعته يقول له : أحمد سويلم.

تنبهت.. فسألني: تسافر يوجوسلافيا - مهرجان استروجا.

لم ينتظر إجابتي لكنه قال للأستاذ فوزي: أحمد سويلم.. هو عندي الآن ثم اتجه لي وقال: اسمك الرباعي، قلت: أحمد محمد محمد سويلم.

كان المهرجان يطلق عليه (مهرجان استروجا الدولي) وله قصة:

وتدل قصته على الوفاء والحب.. أمسك بخيوطها أخوان بطلان هما الشاعر المقدوني قسطنطين ميلا دينوف (١٨٣٠ - ١٨٦٢) وأخوه الأكبر ديمتري.

درس قسطنطين فى كلية الآداب فى أثينا وتعلم اللغة السلافية وآدابها ثم عمل مدرسًا عام ١٨٥٦.. والتقي مع أخيه ديمتري فى نشاط مكثف ضد استخدام اللغة اليونانية فى المناطق المقدونية..

وأخـذا يجمعـان معـا القصائـد والعـادات الشـعبية بهـدف إثبـات أصالـة روح الشـعب المقـدوني.

وتقبـض السـلطات عـلى ديمـتري بتهمـة مقاومـة اللغـة اليونانيـة.. فيتوجـه قسـطنطين إلى أثينـا للتدخـل فى الأمـر.. فيقبـض عليـه هـو الآخـر ويسـجن بجـوار أخيـه.

وفى أثنـاء وجـود قسـطنطين فى زنزانتـه المظلمـة أصيـب بمـرض السّـل.. وأضنـاه الشـعور بالغربـة فكتـب قصيدتـه الشـهيرة (الحـزن مـن أجـل الجنـوب) وأهداهـا وهـو فى السـجن إلى اسـتروجا (بلـده) يقـول فى أولهـا:

ليتنى أملك جناحى نسر

لكى أطير إلى بلادى

وأصل إلى شواطئها العريقة

لكى أنظر بعينى

ما إذا كان الظلام يغمر الشمس

عند بزوغ الفجر

وما إذا كانت الشمس

لا تزال تذكرنى وتلقانى

وقتـل الأخـوان فى السـجن فى عـام ١٨٦٢.. فأقامـت اسـتروجا حفـل تأبـين لهذيـن البطلـين.. واحتفلـت بمـرور مائـة عـام عـلى رحيلهـما.. بمهرجـان شـعري محـلي.. وأخـذ يعقـد كل عـام حتـى صـار دوليـا..

وأقيم متحف للبطلين.. وترجمت القصيدة لكل لغات العالم وأودعت الترجمات فى هذا المتحف.. وقد قمت بترجمتها إلى العربية وأهديتها فوق ورقة بردي إلى هذا المتحف.

أما المهرجان الشعري فكان يقام على جسر فوق نهر صغير يشق ستروجا والحضور على جانبى النهر يقفون بالساعات ليستمعوا إلى الشعراء المشاركين بلغاتهم وبترجمة قصائدهم إلى اللغة الصربيكرواتية.

وتظل هذه الاحتفالية عشرة أيام يطوف فيها الشعراء كل مكان فى (يوغوسلافيا) قبل التقسيم.

وقد حضرت هذا المهرجان لأكثر من مرة.. وتواصلت مع شعراء العالم وسط الطبيعة الساحرة لقرية أوهريد باستروجا.

كان صلاح عبد الصبور شاعراً كبيراً وإنساناً راقياً حنوناً.

أما رحيله فقد كان مفاجئا..

ففي أوائل أغسطس ١٩٨١ دعاه الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي إلى بيته فى مصر الجديدة.. ودعا معه د. جابر عصفور والشاعر أمل دنقل والفنان بهجت عثمان وآخرين

وكانت الجلسة بمثابة المحاكمة لصلاح عبد الصبور لأنه يعمل فى وزارة الثقافة فى وجود الوزير منصور حسن.

ضغط الجميع على مشاعر صلاح عبد الصبور المرهفة.. واتهمه البعض بأنه لم يعد (الفارس القديم) الذى يشير إليه فى شعره.

فأحس صلاح باضطراب فى قلبه..

أسرع الجميع بصلاح إلى أقرب مستشفي (مستشفي هليوبوليس) وكان الليل قد انتصف منذ ساعة.. لكن صلاح لم يستطع تحمل هذا الاضطراب.. فما أن وصل إلى المستشفي حتى أسلم الروح.

وفى اليوم التالي نشر الخبر وانتشر بين المثقفين..

وأقيمت أمسية لتأبينه فى دار الأدباء.. وكانت القصائد التى ألقيناها فى هذه الأمسية تؤكد حزن الشعراء واتهام هؤلاء السهاري بقتل صلاح عبد الصبور.. الإنسان.. الشاعر الكبير.

وتغلق صفحة مضيئة ناصعة لرجل أعطي نفسه للشعر فأعطاه الشعر الكثير.

obeikan.com

د. عبد القادر القط

شيخ النقاد

لو عاش أبو العتاهية عصرنا.. وحضر مجلسه بين تلاميذه ومحبيه.. لنسي مجلس الخليفة المهدي وأنشد:

أتته (الريادة) منقادة إليه تجرر أذيالها

ولم تك تصلح إلاَّ له ولم يك يصلح إلا لها

ذلك هو كبير نقاد العصر وشيخهم الدكتور عبد القادر القط الذى عاش مخلصا للرأي والكلمة.. مربياً ومثقِّفاً وصديقاً لعدد من الأجيال المبدعة فأحببناه وأحبنا.. وسكن فى قلوبنا.. وأسكننا قلبه.. واحتضن نزقنا.. وشغفنا وفورة وجداننا.. فأعلنا له الحب والتقدير..

جاءته جائزة مبارك متأخرة قليلاً.. بعد أن تصارع عليها الكثيرون.. فتح عينيه وهو فى الساعات الأخيرة قبل رحيله (٢٠٠٢) وهو يصارع الموت.. فتلقي خبر الجائزة.. فأحدث هزة فى قلبه.. ورعشة فى جسده.. ثم أغمض عينيه وكأنه اطمأن أن

وطنه كرمه بعد أن كرمته جوائز عربية أخرى كبيرة مثل جائزة فيصل العالمية (١٩٨٠) عن كتابه - الاتجاه الوجداني فى الشعر العربي المعاصر - وغيرها من الجوائز.. ولعله كان يتمني أن تدركه هذه الجائزة وهو فى كامل صحته وحيويته فيشعر فقيمتها تتوج عطاءه الثري.

لم يكن د. القط مجرد أستاذ جامعي.. أو راهب فكر معتزل.. بل كان يشارك بفاعلية فى العمل الثقافي والأدبي..فرأس تحرير مجلة الشعر.. والمسرح.. والمجلة.. وإبداع.. وقام بترجمة عيون الأدب الغربي لشكسبير.. كما جاءت مؤلفاته النقدية لتؤسس مشروعه النقدي الذى يعتمد على فكرة التأصيل وربط الخاص بالعام.. والتراث بالواقع المعاصر.

وقد خاض الدكتور عبد القادر القط معارك أدبية مختلفة مؤكداً من خلالها أهمية الذوق الجمالي ولم يقف معارضاً للاتجاهات الجديدة فى الشعر.. وأوسع لقصيدة النثر بابا فى مجلة إبداع بعنوان: تجارب..

وله ديوان شعر بعنوان (ذكريات شباب) نشر أكثر من مرة..

وأول علاقتي مع د. القط كانت فى عام ١٩٦٤..

كان هو رئيساً لتحرير مجلة الشعر..

وكنت قد نشرت أول قصيدة لي فى أحدي مجلات بيروت.. فأخذت المجلة وذهبت للقائه فى مقر مجلة الشعر.. وعرفته بنفسي وعرضت عليه القصيدة المنشورة.. فأعجب بها وسألني:

لماذا لا تقدم لنا شعرك لننشره فى المجلة.

قلت له: معى قصيدتان.. ولك أن تختار منهما ما تشاء.

رد علىّ: بل اختر أنت وسننشرها فى العدد القادم.

واخترت القصيدة.. وبدأت أقدم له قصائدي.. وتنشر فى مجلة الشعر حتى أصدرت ديواني الأول (الطريق والقلب الحائر) وقد حكيت كيف كنت مصراً على أن يناقشني د. عبد القادر القط والشاعر صلاح عبد الصبور فى برنامج مع النقاد فى الإذاعة..

ثم دعاني الدكتور القط لأحضر جلسته الأسبوعية فى مقهى غرناطة بمصر الجديدة وكانت هذه الجلسة تضم عدداً كبيراً من النقاد والشعراء.. وكنا نثير فيها قضايا كثيرة متنوعة.. ويدلي برأيه فيها.. وتعلمنا الكثير منه..

ثم انتقلت هذه الجلسة إلى مقهى (أمفتريون) بعد هدم غرناطة.. وظلت حتى وفاته.. لكننا حرصنا على ذكراه.. فدعانا د. محمد عبد المطلب الناقد الكبير إلى الاستمرار فى عقد الجلسة الأسبوعية كل يوم جمعة.. ولا تزال تعقد حتى اليوم.

وفى عام ١٩٨٢ عقد فى أسوان مهرجان بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاة أحمد شوقي وحافظ إبراهيم.. وكان الدكتور القط على رأس الحضور فقد كان رئيساً للجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة.

وكانت لديه هواية جميلة هى التصوير الفوتوغرافي.. كان يسجل بآلة التصوير دقائق الطبيعة فى أسوان.. وكنت سعيداً وهو يصورني ويصور المشاركين فى المهرجان.. ويلتقط زوايا طبيعية جميلة تؤكد احترافه لهذه الهواية.

وأتذكر له موقفا فى عام ١٩٨٧.. وكنت قد أصدرت ديواني

السابع (الشوق فى مدائن العشق)

سألني د. القط مستنكراً: لماذا لم تتقدم إلى جائزة الدولة التشجيعية.

قلت له: لا أريد جوائز.. ولا أريد أن يكون شعري موضع صراع..

قال: لكن هذه الجائزة لابد أن تكون فى تاريخك..

كانت الإجابة مقنعة.. فأسرعت إلى تقديم الديوان الأخير إلى الجائزة وفاز بالجائزة التشجيعية فى الشعر.

وفى عام ١٩٩٤ كتب تقريرا عن ديواني (الزمان العصي) ليصدر فى الهيئة العامة للكتاب جاء فيه:

يتضمن الديوان قصائد قصيرة محكمة الصياغة والبناء.. تتراوح تجاربها بين معاناة ذاتية فى الصداقة والصلات الإنسانية والحب.. ورؤية لبعض سمات العصر يقف فيها الشاعر موقف الآسي لما يشهد من تحولات يخذُل فيها الواقع الحلمَ بواقع أفضل.

ويضيف د. القط:

وعلى الرغم من أن أغلب التجارب تعبر عن شئ من الألم أو خيبة الأمل أو ذكرى العلاقات المنبتة.. فإن الشعر يظل دائما مسيطراً على شعوره فلا يأذن للعاطفة المسرفة أن تطغي على تعبيره وصوره.. بل يقدم مقتضات الفن الشعري على ضرورات البوح الصريح.. ويستعيض عن التعبير الحاد بالمقاطع الهادئة المتتابعة التى يكسبها إيقاعها الداخلي وقوافيها المحكمة تأثيراً عميقاً يفوق ما يبدو عليها من هدوء ظاهري.

ووراء المشاعر الحزينة أو الأليمة تبدو مخايل من أحلام ماضية أو مأمولة فى صداقة أكثر وفاء.. أو حب أقوى على الصمود.. أو أوضاع قديمة أحفل بالوحدة والعزة.. والديوان بطبيعة تجاربه المتعددة والصور المتوحدة الدلالة وبفنه الشعري المتميز جدير بالنشر (١٤/ ٦/ ١٩٩٤)..

لقد كان حرصي دائما على رأي هذا الناقد الكبير فى كل ما أكتب.. وكنت أسعد حينما أعرض عليه شعري وأستمع إلى ملاحظاته الثاقبة.. وكم شارك فى مناقشة أعمالي فأكسب الندوة قيمة وجمالاً..

وقد كان يسيئه ويزعجه هجوم المصطلحات الأوربية على الساحة الثقافية العربية وأثرنا هذه القضية فى جلستنا عام ١٩٩٤ وطالبناه بكتابة بحث عن هذه القضية (قضية المصطلح فى مناهج النقد الأدبي الحديث).

وبالفعل استجاب الناقد الكبير لرغبة تلاميذه وأصدر بحثاً بهذا العنوان جاء فيه:

منذ أن بدأ النقد العربي المعاصر يحتذي بعض المناهج الجديدة فى النقد الغربي.. (وبخاصة البنيوية والأسلوبية وما يتفرع عنهما) واجه النقاد العرب عدداً كبير من المصطلحات الأجنبية كان عليهم أن يترجموها أو يعرِّبوها أو (يصوغوا) لها كلمات وعبارات مبتكرة..

وقد وفقوا فى كثير من هذا الجهد وجانبهم التوفيق أحيانا أو اختلفوا اختلافا ظاهرا فى الترجمة والتعريب من ناقد إلى آخر ومن بلد عربي إلى بلد.

ثم دلل الدكتور القط على ذلك فقال:

يحسن أن يكون المصطلح العربي المقترح كلمة قد طال اقترانها فى الاستعمال الشائع بمعاني أو إيحاءات يصعب أن تتحرر منها فى صورتها الاصطلاحية الجديدة.. ومن أمثلة ذلك (انحراف) التى جاءت ترجمة للمصطلح النقدي (**Deviation**) أو (شفرة) ترجمة للمصطلح النقدي (**Code**)..

ثم يقول: إن الإسراف فى استخدام المصطلح على نحو ظاهر على سطح المقال يفقد الناقد أسلوبه الخاص ويواجه القارئ بأسلوب مصطنع قد يصل فى بعض الأحيان إلى حد (الرطانة) التى لا يفهمها إلا المختصون.

ويدعو البحث إلى الاحتفاظ للغة العربية بإيقاعها وقواعدها العامة دون مبالغة فى التزمت وحتى لا تتسع الفجوة بين الناقد والقارئ.

ويسوق د. القط تلك المصطلحات الغربية التى يعترض عليها ويستخدمها الحداثيون من النقاد.. وينحتونها من اللغة نحتاً خاطئا.. مثل: الاستلاب - النقد الموضوعاتي - الظاهراتية - الآلانيات - الأسلبة - التأمثل - السميأة وغيرها.

وهى مصطلحات بالغ أصحابها فى نحتها.. بعيداً عن قواعد اللغة وموازينها المعروفة.. وأثار هذا البحث نقاشاً طويلاً فى مجالس وندوات النقد.

بقى أن نقول أن د. القط كان يملك حسا شعريا متفردا.. ولولا اشتغاله بالنقد والتنظير لكان من كبار الشعراء..ومواقفه كلها تحد واقتحام..

جاءنا مرة فى جلستنا الأسبوعية - فى يونيه ١٩٩٨ وحكي لنا كيف أنه حينما غادر قريته (دكرنس) كانت له قصة حب ظلت ملازمه له فى شبابه.

لكنه لم ينل من هذه القصة سوى الحرمان والبعد والفراق طوال وجوده فى القاهرة.

ثم قال: لقد زرت قريتي أخيراً.. وتذكرت هذا الماضي الجميل.. ورأيتني أكتب قصيدة عامية بعنوان حلم يقظة: أقول فيها:

باحلم وأنا صاحى

والناس حواليا تحلم وهى نايمة

تتحول الظلمة شباك من المرمر

فوقه ستار أخضر

يلعب مع النسمة وعطرها الهادى

وابقى أنا نسمة.. وروح هايمة

تجرى ورا الماضى

وفى نهاية القصيدة يقول:

باحلم بك وأنا نايم

واحلم بك وأنا صاحى

يا نجمتى الحلوة

obeikan.com

وبعد أن استمعنا إلى القصيدة التى أثارت الشجن.. وزلزلت فى كل منا وجدان الماضي.. جلسنا نناقش حول: هل يموت الحب أو يندثر بمرور الزمن.. واتفقنا أخيراً أن الحب مهما طال الزمن.. لن يموت.. بل يظل له وهجه الخاص.. حتى لو زاحمه فى الطريق عاطفة أخرى.

هذه شخصية د. عبد القادر القط التى جمعت بين الإنسان المرهف الحس والناقد الحصيف الشجاع.. والشاعر الذى لا يجد غضاضة عن التعبير فى شعره عن الحب حتى لو كان ذكرى قديمة.

obeikan.com

العقاد

وشموخ الشخصية

فى كتابه (أنا) الذى يقدم فيه سيرته الذاتية يقول عباس محمود العقاد:

هل يعرف الإنسان نفسه؟

كلا.. بغير تردد.. فلو أنه عرف نفسه لعرف كل شئ فى الأرض والسماء وفى الجهر والخفاء.. ولم يكتب ذلك لأحد من أبناء الفناء.

إنما يعرف الإنسان نفسه بمعنى واحد.. وهو أن يعرف حدود نفسه حيث تلقى ما حولها من الأحياء أو من الأشياء.. والفرق عظيم بين معرفة النفس ومعرفة حدودها..

والأحرى أن يقال إن الإنسان يعرف الفواصل بينه وبين غيره فيعرف مداها.. ولا يتعداه.. وقد عرفت أننى أثق فى نفسي وأعتمد عليها.. ولكنى أعتقد أننى وثقت بها عن طريق النفي قبل وثوقي بها عن طريق الإثبات..

هـذا الاعـتراف هـو مفتـاح شـخصية العقـاد.. فهـو يتميـز بوضوح الفكـر.. وشـموخ الشـخصية.. والمنطـق المعتمـد عـلى الدقـة والـدرس والاستيعاب.

ومـن ثـم كان العقـاد موسـوعياً.. لم يـترك علـماً ولا موضوعـاً إلا كتـب فيـه بعمـق وبدقـة وبإشـباع لنهـم القـارئ.

فـلا يمكـن أن يذكـر الفكـر الإسـلامي دون أن نذكـر إسـهاماته فى العبقريـات الإسـلامية ودفاعـه عـن العقل الإسـلامي فى كتابـه (التفكير فريضـة إسـلامية) - و(حقائـق الإسـلام - وأباطيـل خصومـة) وقـد تعرفـت عـلى هذيـن الكتابـين عندمـا تقـدم العقـاد بهـما إلى دار القلـم فى السـتينيات مـن القـرن المـاضي.

زار العقـاد دار القلـم ولا أزال أذكـر هـذا المشـهد الرهيـب وهـو يصعـد الدرجـات أمـام الـدار.. بقامتـه العاليـة السـامقة.. وطربوشـه الأحمـر.. وعصـاه التـى لا تفـارق يـده..

وحينـما جلـس فى مكتـب الأسـتاذ المعلـم.. كان صوتـه مميـزا.. فهـو صـوت أجـش مفعـم بالحيويـة بلهجتـه الصعيديـة التـى لم تفارقـه.. والتـى يعطـش فيهـا الجيـم كلـما جـاءت فى أيـة كلمـة.

وأتذكر أنني أخذت منه الكتابين.. وهو يقول:

الكتابان يراجعان.. لكن حذار أن يبدل المراجع أي حرف..

كانـت هنـاك روايـة حـول مراجعـة كتـب العقـاد تقـول: إن مراجعـا بـدل كلمـة للعقـاد.. وظهـر الكتـاب بهـذا التبديـل.. ولمـا عـرف العقـاد ذهـب إلى دار النـشر وطلـب حضـور المراجـع.. فانهـال عليـه ضربـا بالعصـا وهـو يقـول: أتراجـع العقـاد يـا فسـل.

نبهت على المراجعين أن يبتعدوا عن أي تبديل للعقاد.. وصدر الكتابات وسعد بهما العقاد.

وفى كتابه: (التفكير فريضة إسلامية) يقول:

فريضة التفكير فى القرآن الكريم تشمل العقل الإنساني بكل ما احتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها.. فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد..

أما كتابه: (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) فيقول:

الإسلام قوة صامدة بعد مئات السنين.. صامدة أمام مجاميع الأمم الكبرى فى القرن العشرين.. سواء مجاميع الأمم التى تمثل الكتلة الشرقية أو مجاميع الأمم التى تمثل الكتلة الغربية.. أو باختصار صامدة أمام الروس والأمريكان على السواء.

وفى هذا الكتاب يرد العقاد على أباطيل الإسلام كاشفاً القناع عن مؤامرات المستشرقين والمبشرين والاستعمار والصهيونية العالمية.

وللعقاد فلسفة خاصة أقرب إلى الوعي الكوني الذى يفوق الإدراك الحسي والإدراك العقلي.

وتتصل الفلسفة لدي العقاد بالشعر.. ومن ثم جاء شعره ممزوجاً بالفكر والفلسفة إلى جانب الخيال والمجاز.

وكان ابن أخيه الأديب عامر العقاد صديقاً لي.. بل كان مندوبه فى أعماله ونشر كتبه.. ربطتني به علاقة قوية طوال حياته.

وأتذكر يوماً أنني عرفت أن صالون العقاد الذى يعقده كل

جمعة سوف يحتفل بعيد ميلاده.

فكتبت قصيدة أحيي فيه العقاد.. وطبعا كانت من الشعر العمودي.. لأنني أعلم أنه لم يكن يميل إلى الشعر الحديث.

وأعطيت القصيدة إلى عامر فأعجب بها.. ودعاني إلى إلقائها أمامه.. وكانت المرة الوحيدة التى حضرت فيها صالونه واحتفلت بعيد ميلاده.

وكان العقاد رئيساً للجنة الشعر بالمجلس الأعلى للفنون والآداب وكانت مسابقات الشعر التى تعلنها اللجنة تخضع لرأيه.. أي أنه كان يقبل الشعر العمودي.. ويحيل الشعر الحديث إلى لجنة النثر..

عرفت ذلك فى عام ١٩٦٤ عندما أعلنت اللجنة عن مسابقة بين شباب شعراء الوطن العربي.

واشتركت فى هذه المسابقة بقصيدة عمودية متعددة القوافي.

وكانت فكرة القصيدة تدور حول هذا الطائر داخل قفصه لكنه كان يشعر بالحرية أكثر من الطيور خارج القفص.

وفازت القصيدة بين القصائد المشتركة.

واحتفل بتوزيع الجوائز بحضور الوزير يوسف السباعي.. وألقي العقاد كلمة أشاد فيها بالقصائد الفائزة والشعراء الشباب.. وكانت قيمة الجائزة المالية آنذاك (١٩٦٤) خمسة عشر جنيها.. وهو مبلغ كبير بمقياس ذلك الزمان.

وفى العدد الأول من مجلة الشعر الصادر فى يناير ١٩٦٤ كتب العقاد رأيه فى الشعر.. فقسم جماهير الشعر إلى ثلاثة: أظهرها

جمهور الذين يهتمون بالشعر للدراسة أيا كان المقصد من هذه الدراسة للتاريخ.. أو للتقسيم والتبويب والتعليق.. أو للإعراب والتطبيق على حسب قواعد البلاغة وتقاليدها..

ويلي هذا الجمهور فى الظهور.. جمهور الهواة على السماع.

ثم يلي هذا جمهور القراء الذين يبحثون عن الشعر لأنهم يرغبون فيه.. ويعلمون يقينا أنهم يغنمون سرور قلوبهم وضمائرهم كلما بحثوا عنه ووجدوه ولا يقنعون منه بدور الانتظار إلى أن يطرق عليهم باب الدار..

ويقرر العقاد أن فريق الدارسين المحترفين تصرفهم القواعد والأشكال عما وراءها من الجوهر واللباب.. لأنهم بطبيعتهم تقليديون يتوارثون الصناعة.. ويفوتهم منها جانب الابتكار غير الموروث.. ويهمهم إعراب البيت من الشعر أو تسمية المدرسة الشعرية أضعاف اهتمامهم بمعناه أو بواعث الشعور فيه.

ثم يقول:

إن جمهور قراء الشعر هم قوام الحياة الشعرية فى كل زمان وفى كل لغة.. وهم الفيصل الأخير فى نقد الشعر وتقويمه.

ثم يلخص العقاد مذهبه فى التجديد بأن القواعد لديه غير القيود.. إذ القواعد لا غني عنها فى فن من الفنون حتى لو كانت فنون الألاعيب.. أما القيود فإنها تحجر على اللسان والوجدان.. ويحق للخارج عليها أن يسمي طالب تحرير وتجديد.

هكذا كانت نظرة العقاد للشعر.. ويبدو أن الخلاف القائم بينه وبين المدرسة الحديثة كان خلاف مسميات.. إذ القواعد بالطبع غير القيود.. وليس بفن ذلك يصنعه صاحبه بلا قواعد

وبـلا نظـام ويطبـق العقـاد هـذه النظريـة عـلى أشـعاره هـو.

وللعقـاد أبيـات يحفظهـا جميـع الشـعراء تتحـدث عـن الشـعر يقـول فيها :

الشعر من نفس الرحمان مقتبس

والشاعر الفذ بين الناس رحمانُ

والشعر ألسنة تفضى الحيـاة بها

إلى الحيـاة بما يـطـويه كـتـمانُ

لولا القريض لكانت وهى فاتنة

خـرساء ليس لها بالقول تبيانُ

ما دام فى الكون ركن للحياة يُرى

ففي صحائفه للشعر ديوانُ

وهـى قصيـدة طويلـة اتفـق هـو وصديقـاه المـازني وعـلى شـوقي أن يعارضـوا بهـا قصيـدة ابـن الرومـى:

أجْنت لك الوجد أغصان وكثبان

فيهن نوعان : تفاح ورومان

فكتب العقاد هذه القصيدة.. وفعل الصديقان مثله..

بقى أن نقول إن العقاد رحل عنا عام ١٩٦٤ تاركاً تراثاً أدبياً وعلمياً متنوعاً.. أما أسرار صالون العقاد.. فقد باح بها أنيس منصور فى كتابه (فى صالون العقاد) وهو حكايات وطرائف شائقة تدل على عبقرية هذا الرجل ذي الشخصية الشامخة.

obeikan.com

سعد الدين وهبة

الفارس الذى مات واقفا

حين رحل عن عالمنا فى الحادي عشر من نوفمبر عام ١٩٩٧..
كتبت فى رثائه قصيدة بعنوان (التحدي) قلت فيها:

حين تموت الأشجار
على قمتها سامقة
أدرك أن الدنيا تتخلى عن حجتها
فى قتل الإنسان
حين الفارس يهوى من صهوته
فى يده السيف النارى
وفى القلب الرؤيا صادقة

obeikan.com

أدرك أن الساحة
لم تلبس ثوب العتمة
فى وجه الفرسان..

بالفعل كان فارساً.. ورحل كالأشجار واقفاً..

سبعة وسبعون عاماً قضاها سعد الدن وهبة بين البشر الأحياء.. وعاشها طولا وعرضاً.. حيث ولد فى قرية دميرة فى ٤ فبراير عام ١٩٢٥.. وانتقل من محافظة الدقهلية إلى البحيرة- دمنهور تلميذا.. وفى الإسكندرية عرف طريقه إلى باعة الكتب والمجلات فقرأ توفيق الحكيم ومجلات الرسالة والثقافة والجديد وبدأت رحلة الكتابة وهو طالب فى الدراسة الثانوية.. وفى عام ١٩٤٤ قاد مظاهرة احتجاجا على السلطة الفرنسية لقبضها على شكري القوتلي.

ثم التحق بكلية البوليس عام ١٩٤٥ ويتخرج ضابطاً ليعمل فى مركز منوف ثم الإسكندرية والتحق بكلية الآداب.. وأيد ثورة ١٩٥٢ ثم استقال من البوليس ليعمل بالصحافة.

ثم بدأ عمله بوزارة الثقافة منذ ١٩٦٤ حتى استقال عام ١٩٨٠ وهو وجود ثقافي كبير فى الحياة الثقافية والأدبية.. فهو مسرحي وكاتب مقال.. وكاتب قصة.. وكاتب سيناريو أفلام وكاتب تليفزيوني.. وحصل على العديد من الجوائز.

أما علاقتي به فقد بدأت عام ١٩٦٨ حين كان رئيساً للشركة القومية للتوزيع وكنت أعمل تحت قيادته.. ورحب حينما عرضت

عليه إصدار مجلة داخلية للشركة بعنوان (الكلمة)..

ثم التحقت بالقوات المسلحة (نوفمبر١٩٦٨ حتى يونيه١٩٧٤) وخرجت من القوات المسلحة لأجد نفسي فى الهيئة العامة للكتاب.

وكانت بينى وبين رئيس مجلس إدارة الهيئة مشاكل كثيرة.. فذهبت إلى سعد الدين وهبة وكان رئيساً لهيئة قصور الثقافة.. أطلب منه الموافقة على نقلي لأعمل معه.. فوافق.. لكن رئيس هيئة الكتاب عاندني ولم يوافق.. حتى شاء الله أن أستقيل من هيئة الكتاب فى يوليو عام ١٩٧٧ لأعمل فى دار المعارف.

ثم نلتقي فى اتحاد الكتاب حيث كنت أميناً لصندوق الاتحاد فى عام ١٩٩٥ وكان هو نائباً لرئيس مجلس الإدارة.. وتوثقت علاقتي به خلال اللقاء شبه اليومي معه.

وكانت انتخابات التجديد النصفي قد تقررت.. وكنت من الذين يستمرون لتكملة مدتهم.. وكان هو أيضاً مستمرا.. فكلفني بإعداد الجمعية العمومية والانتخابات.

وكان رئيس الاتحاد الأديب الكبير ثروت أباظة.. يري اتحاد الكتاب وعمله من الأسرار التى يحظر الاطلاع عليها.

وحدث أن طالبني المرشحون لعضوية مجلس الإدارة.. بقائمة لأعضاء الاتحاد فسألت الأستاذ سعد.. فأجاب: طبعاً من حق المرشحين الحصول على هذه القائمة للاتصال بهم كما هى الحال فى أي انتخابات نقابية.

وعلى الفور قمت بإعداد القائمة بأعداد المرشحين وبدأت فى تسليمها لمن يطلبها.

وعلم بذلك الأستاذ ثروت أباظة فاتصل بالأستاذ سعد وشكاني له.. لأني (سلمت أسرار الاتحاد للأعضاء) فكانت إجابة سعد وهبة:

يا أستاذ ثروت أنا الذى كلفت أحمد سويلم بذلك لأن الأعضاء المرشحين من حقهم الحصول على هذه القائمة.

وكان ما حدث أن ثار الأستاذ ثروت أباظة.. واعتبر ذلك تحديا وكسرا للأوامر.. أما الأستاذ سعد فكان تصرفه هادئا منطقياً..

وبدأنا معا نغير من أسلوب العمل فى الاتحاد.. خاصة حينما صرت سكرتيراً عاماً.. واستقال الأستاذ ثروت.. وصار سعد وهبة رئيساً للاتحاد.

وفى يونيه ١٩٩٧ كانت ليبيا تعاني الحصار.. ودعا سعد وهبة كل النقابات المهنية المصرية والعربية لمسيرة برية إلى ليبيا..

وكانت الرحلة شاقة مشقة شديدة..

بدأت السيارات فى التحرك من القاهرة وقادنا سعد الدين وهبة فى هذه الرحلة.. ولم نستغرق وقتا فى جمرك السلوم المصري.. لكن جمرك السلوم الليبي كان معقدً.. فظللنا فيه نحو أربع ساعات لفحص الجوازات والإجراءات الأخرى.

وهنا صحت فى مجموعة من الأصدقاء: من هنا نلغي عقولنا.

وبالفعل وصلنا إلى بنغازى.. ولم يكن لديهم أماكن ولا فنادق لاستضافة القادمين من مصر والذين يبلغ عددهم ثلاثمائة مشارك.

واستطعنا بمشقة أن نوفر أماكن للمشاركات من النساء.. وتحملنا نحن الرجال عدم النوم وعدم الراحة.

ثم جاءتنا الأنباء بأننا سوف نستقل طيرانا داخليا إلى (سرت) حيث يوجد القذافي.

واستغرق ذلك ثلاث رحلات بالطيران الداخلي.. ووصلنا ظهراً إلى سرت..

قيل لنا: سيراكم الزعيم القائد بعد صلاة العصر.

انتظرنا وصلينا العصر.. ولم يحدث شئ..

قيل لنا: سيراكم بعد صلاة المغرب.

انتظرنا وصلينا المغرب.. ولم يحدث شئ..

قيل لنا: سيراكم بعد صلاة العشاء.

انتظرنا وصلينا العشاء.. ولم يحدث شئ..

وتجمع المشاركون غاضبين حول سعد الدين وهبة.. بل هدد بعضهم وكانوا من مجلس الشعب بالعودة على نفقتهم الخاصة احتجاجا على هذه المعاملة السيئة..

وأخذ سعد وهبة يسترضي الجميع وينصحهم بالصبر.. حتى كانت العاشرة مساء.. وبدأنا نتحرك بالسيارات فى الصحراء المظلمة حتى وصلنا بعد ساعة إلى خيمة القائد.

ودعونا الله ألا يطيل فى حديثه.. فنحن مجهدون لم ننم منذ تحركنا من القاهرة..

واستجاب الله لنا.. وحضر القذافي وتحدث نصف ساعة

فقط.. ثم أخذنا أماكننا فى السيارات عائدين إلى القاهرة.. بعد رحلة شاقة عسيرة.. مجهدة.

ولم يمض سعد وهبة وقتا طويلاً فى القاهرة حتى داهمه مرضه الأخير فسافر إلى باريس للعلاج.. وهو يقول عن هذه التجربة المريرة.

أعيش فى باريس فى حجرة صغيرة أنام فيها وبجوارها حجرة أخرى بها جهاز التليفزيون وأغادر البيت كي أذهب إلى معهد (جوستاف روسيه) القريب من حيث أعيش بضع دقائق فقط وأسلم نفسي لجهاز الأشعة عدة دقائق أربع مرات فى الأسبوع.. وبعد ذلك بين حجرة النوم والتليفزيون أعيش.. ما الفارق إذن إذا كانت هذه الحجرة فى باريس أو فى لندن أو فى القاهرة أو فى أي مدينة أخرى مصرية صغيرة أبو حمص مثلا أو دسوق..

لقد بدأت هذه القصة مع سعد وهبة مساء الأربعاء ٣٠ يوليو وكان موعدا لمجلس إدارة اتحاد الكتاب.. حيث شعر بشئ من الوهن والضعف قبل الاجتماع بوقت قليل.. وانتظرناه لكي يحضر.. لكنه تأخر على غير عاده فاتصلت ببيته.. وعلمت أنه ذهب إلى الطبيب وحذره من الخروج حتى يخرج من جسده الماء.. وبالفعل.. رأس الاجتماع الأستاذ فاروق خورشيد نائب الرئيس.

وبعدها نصحه الطبيب بالسفر إلى فرنسا للفحص والعلاج.. وكان الأستاذ سعد يتصل بي على هاتف بيتي صباح كل يوم ليطمئن على سير العمل فى الاتحاد.. وأخبره بكل شئ.. وأدون ما يريده لأنفذه وأستشيره فى أي جديد.

وكان آخر هاتف منه صباح الأحد التاسع من نوفمبر عام ١٩٩٧ ولمست من صوته الوهن الشديد.. لكن حرصه على معرفة أخبار الاتحاد كان مقدما لديه على مرضه.. فهي مسئولية ليست بالهينة.. كان ذلك قبل وفاته بيومين..

أغلقت الهاتف وقلت لزوجتي.. أحسب أن هذه المكالمة هى آخر مكالمة منه.. صوته واهن جدا.. حديثه متقطع.

ودعوت له بالشفاء..

لكن الموت كان أسبق إليه من دعواتي.. ورحل سعد الدين وهبة بعد أن كتب لنفسه تاريخاً ناصعاً من الإبداع والعمل الثقافي المتميز.

openkan.com

عبد الرحمن الشرقاوي

القامة الشعرية العالية

كنت عزوفا طوال عمري عن الدخول فى المعارك الأدبية.. خاصة تلك المعارك المفتعلة الوهمية.. التى يخرج منها من دخلها بجراح شديدة الغور.. أما المعارك التى تستحق أن يشارك فيها الإنسان فلا بأس إذا كانت تستحق..

أذكر مثلا أن أثارت (جريدة الأدب) التى تصدر عن مؤسسة أخبار اليوم وكان يرأس تحريرها الكاتبة حسن شاه.. أثارت معركة بدأتها أجيال قصيدة النثر.. باتهامهم للأجيال السابقة عليهم والذين يكتبون شعر التفعيلة بأن هؤلاء الشعراء (محافظون) (تقليديون) (متخلفون).

وظلت الجريدة طوال شهور كثيرة تستضيف شعراء قصيدة النثر.. الذين يجمعون على اتهام من قبلهم بهذه الصفات.

وكنت أقرأ لهم هذه التهم الواهية التى لا تستند إلى أي دليل فني أو أدبي وأضحك.. لأنني أدرك خفايا تلك الألاعيب خاصة ممن يدعون أنهم شعراء أو مبدعون متفوقون.

وبعد أن أفرغ هؤلاء الشعراء ما فى جعبتهم من اتهامات.. اتصلت بي إحدى المحررات فى الجريدة تطلب منى الرد عليهم.

تعجبت وسألتها: ماذا قالوا حتى يمكنني الرد عليهم.

حاولت المحررة أن تذكر شيئًا يستحق الرد عليه.. فأخفقت تماماً..

قلت لها: هم يقولون عنى مثلاً إنني (محافظ).. فهل لديهم ما يؤكد ذلك من أشعاري.. أم تريدين أن أنفي عن نفسي هذه التهمة فأقف موقف المدافع.. أم يريدون مثلا أنا أكون (سكرتير محافظ).. وضحكت.

أصرت المحررة على أن تكتب على لساني شيئا.. فقلت:

لم أجد فى كلامهم ما يستحق أن أرد عليه.. وغالبا.. هم سوف يسعدون جدا حينما يرد أحد منا عليهم.. لكي تستمر المعركة .. وتشتعل..

ورفضت تماما أن أرد..

لكن أحد الأصدقاء الشعراء رد عليهم رداً طويلاً.. مما أشعل المعركة من جديد ونال هذا الصديق منهم أذي شديداً.

معارك كثيرة من هذا النوع آليت على نفسي ألا أدخلها حتى لا تعيقني عن إبداعي.. ولا تشغلني عن تفكيري.. وكتاباتي.

لكن هناك معركة شاركت فيها مع الأستاذ الكبير عبد الرحمن الشرقاوي فى عام ١٩٨٤.

أما الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي.. فقد ولد فى نوفمبر عام ١٩٢٠ ورحل فى نوفمبر ١٩٨٧.. وهو من قرية الدلاتون دقهلية.

نتذكره دائما حينما يعرض فيلم الأرض على الشاشة الصغيرة.. تلك الرواية التى تجسد مساوئ الرأسمالية والإقطاع فى أبشع صورها.. وتبرز دور الفلاح المصري وصبره وكرامته وتعلقه بأرضه.

والشرقاوي أديب وصحافي وكاتب مسرحي.. ومفكر إسلامي.

فهو أديب مبدع كتب الرواية العربية التى يؤكد فيها انتماءه لهذا الوطن.. فبجانب الأرض.. كتب روايات: قلوب خالية - الشوارع الخلفية - الفلاح.

وهو شاعر أصيل.. اشتهر عام ١٩٥٤ بقصيدته المطولة: من أب مصري إلى الرئيس ترومان.. يسجل فيها الغضب ضد أمريكا بسبب حربها فى كوريا ويندد بالأحلاف العسكرية التى تهدد الشرق الأوسط.. ومنها قوله:

وأقسم أنهمُ فى غد

سيرمونني بجميع التهم

عميل الكومنفرم

يدبر بالعنف قلب النظام

وداعية من دعاة السلام

وداهية من مثيرى الشقاق

وكم عندهم من دليل يساق

وفى عام ١٩٦٧ كتب قصيدة مطولة أخرى (رسالة مصري إلى

الرئيس جونسون) يندد بموقف أمريكا من حرب ١٩٦٧.

والشرقاوي كاتب مسرحي متميز.. استخدم الشعر الحديث فى مسرحه لإيمانه أنه يناسب هذا الفن.

وله فى هذا المجال: مأساة جميلة بو حريد - الفتي مهران - تمثال الحرية - الحسين شهيداً - الحسين ثائرا - عرابي زعيم الفلاحين.

وربما كان أحد رواد هذا الفن (المسرح الشعري) سبق به كثيراً من الشعراء..

والشرقاوي له جهد ثقافي فى الحياة العامة لا ينكر.. فهو قد أسس مجلة الفجر عام ١٩٤٥ مع بعض الأدباء منهم د. القط - نعمان عاشور - لطيفة الزيات - أحمد رشدي صالح وآخرون.

ورأس المجلس الأعلى للفنون والآداب.. والاتحاد العام للأدباء العرب.. ومجلة روز اليوسف.. ومنظمة التضامن لكتاب أسيا وأفريقيا (١٩٧٩) خلفا للراحل يوسف السباعي بعد اغتياله.

أما إسهاماته الإسلامية.. فيكفي أن نذكر له: محمد رسول الحرية - وأئمة الفقه السبعة.

وكان له فى الأهرام مقال أسبوعي.

إذن هو مفكر أديب شاعر مسرحي.. له قدره ومكانته الإبداعية المرموقة.

أما المعركة التى واجهت الشرقاوي وواجهتني معه فقد كانت على صفحات جريدة أخبار اليوم (صفحة أخبار الكتب - وحكايات الأدب) بإشراف نبيل أباظة بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٨٤.

استضافت الصفحة الشاعر والناقد أنس داود بعد عودته من العمل بالخارج لسنوات طويلة.. وأفردت له مساحة الصفحة كاملة فى حوار فتح النار فيه على الحركة الأدبية التى غاب عنها طويلاً:

وما يهمنا فى هذه المعركة أن هذا الناقد أراد أن يكون أو يستعيد دوره.. فى الحياة الأدبية التى نسيته طويلا.. عن طريق إلقاء الحجارة على الشعراء.

وبدأت الصفحة تقدمه على أنه أحد النقاد الكبار.. وأحد الشعراء الكبار...

ما علينا.....

المهم.. أنه سئل عن المسرح الشعري.. فتحدث عن شوقي وعزيز أباظة حديثا منصفا ثم قال:

وتأتي أعمال عبد الرحمن الشرقاوي كطليعة لاستخدام الشعر الحر فى الدراما الشعرية ولكنها تسقط فى وهدة التعبير المباشر ونظم المقولات السياسية لأن موهبة عبد الرحمن موهبة محدودة.. مع تقديري له كمفكر وكاتب روائي كبير.. وقدراته على التعبير بالصورة واستغلال العناصر الموسيقية واللعب بالرمز الشعري تكاد تكون غير موجودة فى مسرحه.. فأخفق هذا المسرح وفى ظني أنه أغلق أبوابه لتبدأ بعده مرحلة العطاء الخصب الثري فى مسرح صلاح عبد الصبور.

هكذا حكم هذا الناقد على الشرقاوي بمحدودية الموهبة وإخفاقه فى المسرح الشعري.

ثم تتابعت الأسئلة فسأله عن الشعراء.. فنراه يمسك العصا من الوسط مع البعض ويدعي أنه لم يقرأ البعض الآخر.. ثم يقول:

أما أحمد سويلم فبعض شعره جيد لكن الكثير منه يعتبر من ظواهر الانحطاط فى حركة الشعر الحر.. بما يضم من ركاكة الأبنية وضحالة الرؤية..

ثم أخذ يتحدث عن نفسه ويقول:

أما أنس داود وربما آخرون.. فهم يمثلون تقدماً مستمرا يتجدد كل عام ويسجل ليذاع فى التليفزيون.. وبذلك يدخل الشعر العربي ونغمة الكلمة العربية كل بيت وكل أذن.

وأحدث هذا الحوار أثارا متباينة فى الوسط الأدبي..

واتصلت بالأستاذ الشرقاوي وتحدثنا طويلا فى هذا الأمر.. وكان شديد الغضب والتأثر..

عرضت عليه أن يكتب رداً.. فقال: أكتب أنت..

واتفقنا على ذلك..

وفى فبراير ١٩٨٤ نشر ردي الذى عنونته (قل لنا: من تكون أولا) وسميته (صامت الدهر) الذى هبط القاهرة بعد سنوات طويلة يجمع فيها المال والهدايا.. ويريد أن يزيح من أمامه الأدباء الشرفاء الذين لم يغرهم السفر ولا جمع المال والهدايا.

ثم تحدثت عن أعماله التى أصدرها - على نفقته الخاصة - أي التى أصدرها هو وليس عن طريق دور النشر التى نشرت لي ولغيري.. وللشرقاوي أيضاً..

وكشفت ألاعيبه ونفاقه مع بعض الأسماء التى جاملها من أجل حديث يذاع له أو مساحة يكتب فيها.

وكان ردي كاشفا لأهداف هذا الناقد المدع الحاقدة على الساحة الأدبية المصرية..

وبعد نشر هذا الرد اتصل بي الأستاذ الشرقاوي يشكرني على رده.. وزرته فى مكتبه.. وأخبرني أن هذا الناقد يريد أن يعتذر لنا.. فما رأيك..

قلت له يا أستاذ عبد الرحمن هناك مثل شعبي يقول: تشتمني فى ساحة وتصالحني فى حارة.. دعه يكتب هذا الاعتذار فى مكان مقروء..

وحاول الناقد أن يفعل هذا على استحياء.. بعد أن أسقطت قناعه أمام القارئ الحصيف.

واستمرت علاقتي بالأستاذ الشرقاوى فى إطار من التقدير والاحترام حتى أخر يوم من حياته.

طاهر أبو فاشا

آخر ظرفاء العصر

أنتمي إلى جيل ارتبط بالإذاعة وبرامجها.. وغذى خياله واستمتع بكل ما يقدمه هذا الجهاز الصغير (الراديو).

وأحسب أن العالم العربي من المحيط إلى الخليج عرف أم كلثوم وعبد الوهاب عن طريق الإذاعة.. وكان الخميس الأول من كل شهر يوم عيد لدي كل عربي وهو يستمع إلى كوكب الشرق تشدو بأغنياتها الرائعة.

كما استمعنا أيضا إلى صوت طه حسين فى حديث الأربعاء.. وإلى العقاد وإلى كبار الأدباء والمثقفين.. فتعرفنا على أصواتهم من خلال الإذاعة.

وكان الصديق الشاعر فاروق شوشة يحرص فى برنامجه اليومي (لغتنا الجميلة) على أن يبدأه بصوت طه حسين:

لغتنا العربية يسر لا عسر.. ولنا أن نضيف إليها ما لم يكن مستخدما فى الزمن القديم.!

أما هذه الحلقات الدرامية (ألف ليلة وليلة) فكانت أكثر تأثيراً فى وجدان المستمع.. فكنا نحرص على الاستماع إليها ومتابعتها يومياً.

كان طاهر أبو فاشا هو كاتب حلقات ألف ليلة وليلة.. وكان أسلوبه جميلاً.. ولغته ممتعة.. وتعبيراته رشيقة.. وكان محمد محمود شعبان (بابا شارو) هو مخرج هذه الحلقات.. أما الممثلون فكانوا من كبار الفنانين.

أما طاهر أبو فاشا فكان شاعراً رقيقاً.. لغوياً متميزا.. ظريفا فى حديثه وتعاملاته جمع بين الحكمة والأدب.. برغم امتلاء حياته بالأسى.. وكأنه جعل السخرية مخرجاً ومهرباً من هذا الأسى.. ومن الفكاهة حكمة وعزاء لقلبه الجريح.

ولد طاهر أبو فاشا فى مدينة دمياط فى عام ١٩٠٨ وتخرج فى كلية دار العلوم عام ١٩٤٠ وتوفي فى ١٢ مايو عام ١٩٨٩.. أما أعماله الشعرية فقد جمعها ونشرها صديقه الشاعر الكبير عبد العليم عيسي فى مجلد واحد يضم ستة دواوين.

وربما نلاحظ قلة عدد دواوينه التى لا تتناسب مع عمره الطويل.. وتُعزي قلة عطائه الشعري إلى اهتمامه بالأعمال الإذاعية والدرامية التى استنفدت طاقته الإبداعية.. فإلى جانب حلقات ألف ليلة وليلة.. له أيضا ألف يوم ويوم.. وله أوبريت رابعة العدوية.. ومسلسل أعياد الحصاد - وهى صور غنائية مستمدة من حياة الفلاح المصري فى الريف.. إلى جانب أبحاث مختلفة فى اللغة والتاريخ والتراث لا تقع تحت حصر.

تعرفت إليه فى وقت مبكر.. وذهبنا معا إلى الندوات والأمسيات

الشـعرية فى كل مكان.

وكان يتميز بخفة الظل.. والشخصية الآسرة.

وكنـا نكثـر مـن حضـور نـدوات الشـعر والمشـاركة فيهـا فى الجامعـات.. فتجتمـع حولـه الطالبـات.

ويحكي أبو فاشا بعض هذه المواقف الطريفة قائلا:

تقـترب منـى فتـاة جميلـة تـأسر العـين والقلـب.. فأسـألها: أتقرضينه (يعنـى هـل تكتبـين الشـعر).. فـإذا أجابـت الفتـاة الجميلـة إجابـة جاهلـة كأن تقـول: أنـا لسـت فـأرة.. سـقط جمالهـا.. وإذا فهمـت الفتـاة سـؤالي.. قلـت لهـا: أسـمعيني.. فـإذا كان شـعرها رديئـا سـقط جمالهـا.. وإذا كان جيـدا ازدادت فى عينـي وقلبـي جمـالاً.

ومـرة سـافرنا معـا إلى دميـاط مسـقط رأسـه لحضـور أمسـية شـعرية.. ورأيتـه يقـول لي:

إن لي طقوساً هنا فى دمياط.. وأريدك أن تشاركني إياها.

قلت موافقا: طبعا.. أليست طقوسا جميلة.

قال: سوف تري..

ثم أمر سائق السيارة إلى الاتجاه نحو عنوان معين..

وتوقفنا أمام دكان حلاق.. ثم قال:

هـذا أول طقـس.. أحلـق عنـد هـذا منـذ طفولتـي.. وأنـا أدعـوك أيضـا إلى قـص شـعرك.

مددت يدي إلى رأسي وقلت:

لكنه ليس طويلاً.

قال بحزم: ألم توافقني على مشاركتي طقوسي.

هززت رأسي ولم أستطع أن أفلت من وعدي.. وقصصت شعري أنا أيضاً..

ثم مررنا بالسيارة على المعهد الديني بدمياط.. فقال:

هذا هو المعهد الذى تلقيت فيه تعليمي الأزهري قبل الانتقال إلى القاهرة والالتحاق بدار العلوم.. ولي فيه ذكريات كثيرة.

قلت له: احك لي شيئا من هذه الذكريات.

قال: كنا جيلا نتميز (بالشقاوة) جدا.. نهرب من الدراسة.. ونجلس على المقهى المجاور حتى ينتهي اليوم الدراسي ثم نعود إلى البيت.

ومرة كنت فى فناء المدرسة مع بعض الأصدقاء وأذن لصلاة الظهر.. ورأيت شيخاً كان يدرس لنا أصول الفقه يقترب منا.. ويزجرنا لأننا لا نذهب لأداء الصلاة.

فأسرعنا - خائفين - إلى المسجد.. ودخلنا.. وأقيمت الصلاة لكنني لم أكن على وضوء.. فلما لمحني الشيخ ناداني قائلا:

تعال يا شيخ طاهر.. صل إماما بنا.

ثم سحبني من ثيابي دون أن أخبره أنني لم أكن على وضوء.

خضعت لإرادة الشيخ ووقفت إماما.. حتى سجدت وسجد معي الجميع ثم أسرعت وتسللت وخرجت سريعا من المسجد دون أن يراني أحد.. وقد حرمني الشيخ بعد ذلك من الدراسة

أسبوعا نظير ارتكابي هذه الجريمة.. بالرغم من أنني أخذت أبرر له أنني لم أكن على وضوء.. وخشيت ألا تصلح الصلاة.. لكنه لم يقبل عذري.

وكان طاهر أبو فاشا لا يترك السيجارة من فمه حتى آخر لحظة من حياته وقد اجتمعنا عليه مرة نناشده بالتخفيف أو الامتناع فأنشد يقول من شعره:

معللةٌ كأن النار فيها
دبيب اليأس يصرخ من إهابي
وأحسب أننى أشعلت فيها
بقايا مهجتى دون الثقابِ
تخدِّرُ من همومك وهوهمُّ
وتوردك المعاطبَ كالرغابِ
كأنى حين أنفثها دخانا
وأغرق فى سحابتها سحابى
أحيل قليل أيامى بخورا
وأعقده على هذا الضبابِ
هربت لها على علمى بأنى
أفر من العذاب إلى العذابِ

وكنا معا أعضاء فى لجنة الشعر بالمجلس الأعلى للثقافة سنوات طويلة.. وكنت حريصا على أن أمر عليه وآخذه من بيته (فى ميدان الجيش بالعباسية) لنذهب معا إلى الاجتماع وأعيده إلى البيت.

وأظل طول الطريق مستمتعا بحكاياته وذكرياته التى لا تنقطع.. والتى كنت أتمني أن أجلس إليه لأسجل تلك الذكريات دون تدخل منى.. ولكن القدر لم يسعفنا.

وكانت ذكرياته وحكاياته متنوعة.. مع كبار الأدباء والمفكرين والسياسيين.. بل كان راوية لأشعار القدماء بذاكرة صافية.

وكان عندما أشاكسه يصيح فى وجهي: أخرس وربك الأكرم.. حشرك الله يوم القيامة سباكاً.

وكانت مهنة السباكة آنذاك قد ارتفع سعرها كثيراً.. فأقول له:

ربما أكون غنيا مثل السباكين.. ونضحك.

أما فى اللغة فقد كان حجة فى الفصحى.. لكنه كان يقول: ليس هناك ما يسمى خطأ فى اللغة.. فالقدماء سوّغوا كل الأخطاء وأولوها.

لكنه مع ذلك كان يكره (اللحن) فى النطق.. وله تشبيهات غريبة يطلقها على الشعراء والكتاب.

سألته مرة عن رأيه فى شعر أحد الشعراء المعاصرين فكانت إجابته:

شعره مثل خشب مكتبه الذى يجلس خلفه.

ولم يزد عن ذلك! ولنا أن نفهم ما نشاء.. ونتخيل كما نشاء.

وكنا فى جلسات لجنة الشعر نصغي إليه وهو يتحاور مع د. أحمد هيكل رئيس اللجنة ويتجادلان حول قضية ما.. فكان أبو فاشا يمتلك الأدلة والحجج التى تجعل د. هيكل يسلم برأيه.. ونسلم نحن كذلك.

كان طاهر أبو فاشا حكاءا بامتياز.. صاحب أسلوب رشيق مؤثر يعرض من خلاله ثقافته الواسعة وعلمه العميق.. ورؤيته الفنية والأدبية فأبكانا وأضحكنا.. فشاركناه بكاءه وضحكه.. بكل الصدق والحب والتقدير.

obeikan.com

د. أحمد مستجير

وزراعة الفقراء

يقول جان بول سارتر فى كتابه (الكلمات):

أكثر الناس يأتون إلى هذا العالم بلا مناسبة إلا من كانت له خصوصية.

والخصوصية التى يقصدها سارتر تعني التميز العقلي أو الفني أو الأدبي الذى يجعل من الإنسان قيمة مضافة إلى الإنسانية.

وهؤلاء المتميزون هم قلة - فى كل العصور - لكن منجزاتهم تتجلي فى هذا التطور والتقدم الذى أصبح عليه العالم فى المجالات المختلفة.

ويذكر التاريخ عباقرة وعظماء تميزوا فى عصور مختلفة.. فكونوا حلقات متتابعة متراكمة أسعدت البشرية بما قدم هؤلاء إليها من منجزات وإضافات.

وأتحدث اليوم عن واحد من هؤلاء الذين شغلهم إسعاد البشرية.. فبدأ وركز جهوده على الفقراء.. ذلك هو الدكتور

obeikan.com

أحمد مستجير.

التقينا فى دار المعارف.. جاءني يحمل كتبه التى أودعها فكره العلمي المستنير ووضع لها عنوان (فى بحور العلم).

بالطبع للعلم بحور وليس بحرا واحدا.

سعدت بلقائه وبكتبه التى ظلت تصدر حتى يوم رحيله.

ود. مستجير من مواليد ١٩٣٤ فى قرية الصلاحات - دقهلية.. وقد كان فى مرحلة الدراسة الثانوية مشغوفاً بالبيولوجيا.. ومدرسها (خليل أفندي) الذى كان يشجعه على حب هذا العلم.

وها هو ينطلق من الريف حاملاً معه هموم الفلاحين.. وآلامهم.. إلى القاهرة.. وكثيرا ما تساءل: ماذا يمكنه أن يقدم لهؤلاء البسطاء من الفلاحين؟

كان السؤال حافزا له على الاجتهاد والتقدم فى كلية الزراعة - حتى تخرج فيها وعمل بها معيدا - ثم مدرساً.. ثم أستاذاً.. ثم عميداً (١٩٨٦-١٩٩٥) وأخذ يطور فيها.. ويشجع زملاءه على البحث العلمي فى مجال (زراعة الفقراء).

كان المفهوم جديداً.. فهو قادم من الريف.. من الحقول.. وهو على وعي بمعاناة الفلاحين الفقراء الذين قد لا يجدون قوت يومهم إلا بالكاد.

سأل نفسه يوماً: ما فائدة هذه الصحراء التى تحيطنا من كل جانب.. إنها تتميز بالملوحة العالية التى تحول دون زراعة القمح والأرز وغيرها من الحبوب.

أخذ يبحث ويبحث ويجرب زراعة الأنسجة ودمج الخلايا

والهندسة الوراثية ومقاومة الملوحة لكي يستطيع أن ينتج القمح والأرز وإنتاج سلالات تتحمل الملوحة.

ونحج فى ذلك..

مرة تحدثت إليه وهو يشرح لي هذه التجربة.. وسألته عن أحلامه قال:

حلمي أن نزرع الصحراء.. ولا نشعر أنها عدوا لنا ولأرزاقنا.

وكتب مرة يقول:

موزع أنا بين شاطئين كلاهما خصب وثري.. أجلس على الشاطئ وأستعذب التأمل فى الآخر.. إن الفن أنا.. والعلم نحن.. وأنا ذبت فى النحن وأحن إلى الأنا.. وأعرف أن الفن هو القلق وأن العلم هو الطمأنينة.. فأنا مطمئن أرنو إلى القلق.

هكذا كان تفكيره القائم على الخيال من أجل تحقيقه وتجسيده.. ومن ثم كان شاعراً يكتب الشعر الجميل.. وله بحث مهم العروض الشعري وكثيراً ما كنا نجلس لنتبادل الاستماع إلى آخر قصائدنا..

وكان فى الوسط الثقافي يلقب بألقاب مختلفة منها: نصير الفقراء.. ومنها الأديب المتنكر فى صورة عالم.

وحينما سئل عن هذا الانحياز للفقراء أجاب:

أنا أنحاز إلى الأرض الريفية لأنني ابنها.. وربما كان تفوقي فى كلية الزراعة (كلية الفلاحين) بسبب عشقي للزراعة والخيال واللون الأخضر.. والريف عشقي الأبدي.. ومنبع الرومانسية المتأججة داخلي.

أصدر كتبًا مهمة فى مجال تخصصه.. أهمها وأبرزها (فى بحور العلم) فى ستة أجزاء.

وأذكر أنه حين جرب زراعة القمح والأرز فى أرض صحراوية وقرأت هذا الخبر اتصلت به مهنئاً.. وقلت أريد أن أري هذه النتيجة.. فجاءني بكيسين صغيرين أحدهما للقمح والأخر للأرز.

سألته: لماذا لا تعمم هذه التجربة.

قال: أحاول إقناع المسئولين.. دون جدوى.

قلت: ولماذا دون جدوى.

قال: هناك محتكرون لهذه التجارة يشوهون أى تجربة فى هذا المجال حتى لا يفقدوا عروشهم.

وظل د. مستجير يقاوم ويجرب ويناضل فى إقناع المسئولين.. حتى يوم وفاته.. (ديسمبر٢٠٠٦).

أتذكر أيضاً هذا اللقاء الذى جمعني به عام ١٩٩٥ فى مبني الاتحادية وكنا ضمن وفد ثقافي دعي لتهنئة الرئيس السابق حسنى مبارك على نجاته من الاغتيال فى أديس أبابا.

كنت أجلس إلى جواره.. ولا نترك شاردة ولا واردة إلا ونعلق عليها بسخرية شديدة.

بدأ الاحتفال.. وقام شاعر كبير بإلقاء كلمة نائبا عن المثقفين وضع فيها الرئيس مكان القديسين.

علقنا على ذلك ساخرين من هذا الشاعر الذى عرف عنه أنه رجل لكل العصور.. ولم نستعجب من ذلك..

ثم قام شاعر آخر.. وألقي قصيدة (عصماء) تذكرني بهذه المدائح الشعرية التى يتكسب بها الشعراء من الخلفاء.. ويبدو أنه حظى بشئ بعد إلقاء هذه القصيدة.

التفت إلىَّ د. أحمد مستجير فقال:

لماذا لا تسمعنا أنت شيئا كما فعل زملاؤك.

كان داخلي يغلي ويشتعل بالغضب والعجب معا.. فما الذى يلجئ شاعرا على هذا التدني مهما كانت المكافأة والجائزة.

قلت للدكتور مستجير.. سوف تري فى الأيام القادمة.

وانتهي اللقاء.. وفى حلق كل منا غصة شديدة.

وحينما جلست إلى مكتبي فى بيتي رأيتني أكتب قصيدة طويلة ساخرة عنوانها (فيتو).. جاءت على النحو:

لك القهر يا سيدى

وأنت تزف جنازة عرسى

وتفلح أن تعصر الآن من رئة الليل

كأسى..

لك العمر يا سيدى

لك العمر.. ما كان منه.. وما لم يكن

لتطلق فيه خرافك

تطلق فيه ذئابك

تعبث.. تشرب..

obeikan.com

تقتات غرسى..

وأستمر على هذا النحو:

لك البحر...

لك الحلم...

لك الأرض..

لك العام والشهر واليوم

أعيادنا والمواسم

لك الشعر...

لك الشكر...

وهى قصيدة طويلة.. وبعد أن انتهيت منها اتصلت بالدكتور مستجير وقلت:

كما وعدتك.. هل أسمعك؟

قال: أرجوك..

وأسمعته القصيدة.. فتعجب.. وحذرني من نشرها..

لكنني قلت له: لن تفهمها السلطة.. ولن يتذوقها إلا المثقفون والنخبة.

وبالفعل دفعتها إلى الأهرام ونشرت فى ٩/ ٧/ ١٩٩٥ على ربع صفحة.. وبالطبع.. لم تفهمها السلطة.. وفهمها المثقفون والنخبة..

وحينما قرأها د. مستجير اتصل بي قائلا:

obeikan.com

أريد أن أطمئن عليك..

قلت: أنا بخير يا صديقي.. لا تقلق.. أريد فقط منك جائزتي.

ضحك وقال: أكيد كيس قمح وكيس أرز.

قلت: أفضل جائزة والله.

واستمرت علاقتنا.. وها هو في مؤتمر أدباء الأقاليم الذى عقد في الفيوم في ٢٠٠١ يختار رئيساً للمؤتمر.. وكانت كلمته مؤكدة للعلاقة الوثيقة بين العلم والأدب..

وجاء في هذه الكلمة:

أعرف أن العلم في حد ذاته – في أيامنا هذه – يقدم مادة خصبة وفيرة للشعراء والأدباء.. وأطمع أن تلجأوا إليه يا أصدقاء تثرون به إنتاجكم.. وأعرف أن العلم لن يتسلل في هدوئه الجميل إلى إنتاجكم إلا إذا أصبح جزءا من حياتنا وصبغ المجتمع بلونه.. ولقد جعلت مهمتي الآن أن أذيع العلم وأدعو إليه آملاً أن يملأ عليكم الجو ويقدح زناد قرائحكم.

هكذا كان إخلاصه للعلم والأدب معا..

أما قصة رحيله فكانت عجيبة حقاً..

لقد كان يتمتع بصحة جيدة.. وكان يجلس في النمسا يحضر أحد المؤتمرات العلمية.. ثم عاد إلى غرفته ليشاهد في التليفزيون ضحايا حرب لبنان.. فأحس بألم في رأسه.. نقل على أثره إلى المستشفى.. فشخص هذا الألم بجلطة دماغية.. أصابته نتيجة انفعال قوي.. ولم يستطع الأطباء إنقاذه.. فرحل عن عالمنا في ١٧ أغسطس عام ٢٠٠٦.

وفقدنا رائدا عالما أديبا.. كان يحمل أحلام الفقراء.. ويعمل من أجل الفقراء.

obeikan.com

محمد المعلم

الفارس المعاند

يقاس نجاح الإنسان بقدرته على اختراق الصعاب.. ورفض الفشل والعناد من أجل تحقيق الهدف.

وربما كان هؤلاء الذين يحملون هذه الصفات.. قليلين فى حياة البشر.. ومن ثم كانوا علامات على تقدم البشرية.. بما قدموه من عطاء.. وما أنجزه من أعمال..

ومحمد المعلم - خالي- اجتمعت فيه هذه الصفات.. ومنذ فتح عينيه على الحياة (١٩١٧) فى ريف - الكوم الطويل - مركز بيلا.. ثم ها هو يتخرج فى كلية العلوم.. ويرفض أن يكون معيداً بالكلية.. ويتجه إلى الصحافة.. ثم الإذاعة.. ثم أنشأ دار القلم عام ١٩٥٩ (سوق التوفيقية بالقاهرة) وأصدرت كتباً للعقاد وطه حسين وأنيس منصور ومصطفى مشرفة وعبد الحميد سماحة وغيرهم.

وفى عام ١٩٦٦ أممت دار القلم.. لكن المعلم لم يستسلم بل أنشأ دار الشروق بالقاهرة عام ١٩٦٨.. وساندته ولده النابه إبراهيم

المعلم.. ثم أنشأ فى بيروت شروق إنترناشيونال عام ١٩٨٣.. وكان من أهم مشاريعه إصدار (موسوعة الشروق) التى اشترك فى تحريرها أكثر من ٢٥٠ من صفوة العلماء والمفكرين والأدباء فى مصر والعالم العربي.

وتولي المعلم رئاسة اتحاد الناشرين لفترة طويلة.. ثم رحل عن عالمنا فى عام ١٩٩٤.

ولو كان لأحد من الأحياء أن بشعر بما قدمه هذا الفارس المعاند.. فلن يكون أكثر مني.

فقد بدأت عملي معه فى عام ١٩٥٩ بعد حصولي على الثانوية العامة.. وكان إصراره أن أعرف هذه المهنة (النشر) بكل تفاصيلها.. فمررت على كل مراحلها ممارساً محباً حتى صرت خبيرا بها خبرة كبيرة.

استطاع المعلم أن يدفعني منذ طفولتي لكي أكون رجلاً صغير السن.. وكان شديد الحب لأمي.. داعما لها فى تعليمي أنا وإخوتي بإصرار شديد.. وحينما حضرت إلى القاهرة وألحقني بالعمل معه فى دار القلم.. بدأ يعلمني كيف تكون الحياة وكيف أذوق ثمرة العمل والاجتهاد.. وكيف أبني نفسي وأصبح عصاميا بما منح الله الإنسان من إرادة ومقدرة.

كانت عيناه علىّ.. مرة يقسو علىّ قسوة المعلم الذى يطمع فى أن أكون ناجحاً ومميزا بين أقراني..

ومرة يحاسبني على أمور أراها صغيرة وتافهة لا تستحق الحساب.. وكأنه يريد ألا يترك هذه الصغائر حتى تكبر وتسد على دروب النجاح.

ومـرة يتسـامح بـإرادة قويـة.. فى خطـأ فنـى فى عمـلي ويقـول: الحسـنات يذهبـن السـيئات.

وكنـت قـد التحقـت بكليـة المعامـلات والإدارة - التجـارة - جامعـة الأزهـر.. ودرسـت عنـاصر التكلفـة لأي منتـج.. ففاجأتـه يومـاً بتكلفـة حقيقيـة لطبـع أحـد الكتـب وسـعد بهـذه التكلفـة التـى شـملت عنـاصر المـواد الخـام والعمالـة والتخزيـن وغيرهـا.. وجعـل منهـا أساسـاً لتكلفـة وتسـعير الكتـب.

ولم تمـض سـنوات حتـى تشربـت منـه علمـه.. ونضالـه.. وعنـاده.. وخبرتـه.. وقدرتـه عـلى حـل المشـاكل.. وشـجاعته فى اقتحـام الصعـاب.. وابتسـامته وهـو يناضـل.. وسـخريته مـن وطـأة الأقـدار.. وتحديـه للفشـل.. وخصامـه لليـأس والقنـوط.. وطموحـه النـاري لرفـع مهنـة النـشر فى مـصر والوطـن العـربي.

أذكـر فى المؤتمـر الثالـث للكتـاب العـرب الـذى عقـد فى القاهـرة (فبرايـر١٩٦٧) وكان وقتهـا رئيسـا للشركـة القوميـة للتوزيـع.. أذكـر أنـه أعلـن طموحـه فى كلـمات قليلـة جـاء فيهـا:

(إن الكتـاب لابـد أن يصـل إلى القـارئ حيثـما يكـون دون أن ننتظـر حتـى يسـعى القـارئ إلى الكتـاب فيأخـذه بعـد مشـقة الانتقـال ودفـع الثمـن).

وقـد كان هـذا التصـور خطـة عمـل لمـن جـاء بعـده فى هـذا الموقع.. حيـث كانـت منافـذ البيـع الممتـدة عـلى طـول الـوادي.. والمعـارض تقـام باسـتمرار فى مناسـبات مختلفـة.

وأتذكـر أنـه أعلـن برنامجـه الطمـوح بإنشـاء نـادي الكتـاب وكنـت واحـدا مـن الذيـن أشرفـوا عليـه مـن أجـل تكويـن رابطـة مـن القـراء

حول الكتب وتوصيل الكتاب إليهم بكل السبل.. وكان من المتوقع لو استمر هذا المشروع أن يطمئن كل ناشر إلى أنه سيوزع من كتابه الجديد بعدد أعضاء هذا النادي بانتظام.

وكأنه كان يهدف من هذه المشروعات الرائدة إلى تحويل القارئ أو المواطن إلى قارئ دائم.. وتحويل القراءة لتكون عادة يومية.

وفى نوفمبر ١٩٦٨ انقطع عملى معه بحكم تجنيدى فى القوات المسلحة ضمن كل المؤهلات العليا استعدادًا لحرب العبور.. ومكثت حتى عام ١٩٧٤ لأخرج إلى عملى فأفاجأ بأننى أعمل فى الهيئة العامة للكتاب.

وبمناسبة دار المعارف.. كنت فى عام ١٩٦٦ قد عملت أميناً عاماً لمكتبة دار القلم - ٢٦ يوليو - واستطعت من خلال هذه المكتبة أن أؤسس لرؤية جديدة لكل من يمارس مهنة بيع الكتاب.. فلا بأس بأن أحمل مؤهلاً عاليا وأعمل أميناً لمكتبة لأن هذا العمل عمل ثقافي بالدرجة الأولي.. ووفقني الله إلى اقتراح أساليب جديدة للبيع.

وسمع بي الأستاذ سيد أبو النجا رئيس مجلس إدارة دار المعارف - وكان يدرس لي فى الكلية مادة التسويق.

وطلب أبو النجا من المعلم أن يعيرنى لأعمل أميناً للفرع الجديد لدار المعارف فى شارع شريف.

واستدعاني المعلم وطرح علىّ هذا العرض.. فسألته: أتريد أنت أن تستغني عنى..؟

قال: بل أنا أمين معك.. ولك حرية القبول أو الرفض.

قلت بإصرار: طبعا أرفض.. لأن حياتي مرتبطة بك.

واعتذر المعلم للأستاذ سيد أبو النجا..

لكن تمر الأيام والسنون وألتحق بدار المعارف عام ١٩٧٧ وأظل بها حتى أصبح مديراً عاماً للنشر.

وعندما علم المعلم بالتحاقي بدار المعارف ابتسم وقال:

لقد اعتذرت فى يوم ما عن دار المعارف.

قلت: ربما لكي أقبلها الآن.. وضحكنا.

ويضربونه فى القلب..

لكنه سرعان ما ينهض من كبوته جواداً جامحاً يأبي الاستسلام ضارباً المثل والقدوة لأنه صاحب مبدأ.. ورائد مهنة.. وفارس ميدان.

وفكر فى عمل موسوعة عربية شاملة..

وربما جاءه هذا الحلم بعد أن حقق جانباً منه عام ١٩٦٥ بإصدار (الموسوعة العربية الميسرة) بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين وبإشراف العالم الكبير محمد شفيق غربال.. وعضوية مجموعة من أكبر مفكري مصر فى مقدمتهم: د. زكى نجيب محمود - ود. سهير القلماوي.. وغيرهما.

أقول حقق بعض الحلم فى هذه الموسوعة.. لكنه كان يطمح إلى موسوعة أكبر وأشمل.. فكانت موسوعة الشروق.

وتنال الشروق جوائز محلية وعالمية.

وأتذكر أنني قدمت خمس قصص من ألف ليلة وليلة إلى

الشروق عام ١٩٨٢ وقام الفنان مصطفى حسين برسمها.. ونالت الشروق بها جوائز عالمية قيمة.

وقبل رحيل المعلم.. قسم العمل فى دار الشروق بين ولديه إبراهيم وعادل.. فجعل إبراهيم يختص بالنشر والطباعة.. وعادل بالتوزيع.

ثم انفصل عادل وأسس الشروق الدولية.

خمسون عاماً من الثقافة والكتب والفكر العربي والإسلامي.

هكذا كان المعلم.. وهكذا ورثت دار الشروق نجاح دار القلم..

وأختتم هذه الوقفة بما قاله المعلم فى الاحتفال بالمفكر العالمي (روجيه جارودي) عند زيارته للقاهرة.

(إن روجيه جارودي المفكر الإسلامي الذى عاش حياته على قمة مفكري الغرب يعتبر منعطفا مهما فى التاريخ الحديث للدعوة الإسلامية لا بصفته مستشرقا ولكن بصفته مسلما وجد الحلول الحقيقية لنظم المجتمع - اقتصاديا واجتماعيا وأحكاما ونظم حكم.

رحم الله والدي وخالي ومعلمي وداعمي محمد المعلم.. الذى لولا رعايته لي لما وصلت إلى مكاني الذى أعتز به وأحمد الله عليه.